

قصص

منشورات موقع بلد الطيوب
سلسلة الكتاب الليبي

محمد إبراهيم الهاشمي

بهجة ومطر

قصص

محمد إبراهيم الهاشمي

الكتاب: بهجة ومطر

الكاتب: محمد إبراهيم الهاشمي

طبعة إلكترونية

رقم الإيداع: 2018/61

ردمك: **ISBN 978-9959-864-85-7**

الناشر: موقع بلد الطيوب (منشورات الطيوب)

سلسلة الكتاب الليبي 47

www.tieob.com

info@tieob.com

2021

شكر وإهداء

شكر موصول بأسمى آيات الود والتقدير

للأديب والكاتب أحمد الفيتوري، الذي كان منارة أنارت الدرب، والذي لولاه لما فهمت كيف أكتب

وللفنانة التشكيلية التي تسكن القلب نجلاء الشفتري

الإهداء

إلى أمي

وإلى بهجة

وإلى تاورغاء، وناس تاورغاء

لوحة الغلاف مبنية على لوحة تشكيلية للفنانة التشكيلية

نجلاء الشفتري

سلام

ما أجمل أن تَرَى ولا تُرَى. أن ترى الوجوه والأفعال المخفية للبشر. على الرغم ما للأمر من تأثير سلبي على النفس والمزاج.

قبل أن يخلق الله جلَّ في علاه أباكم آدم عليه السلام، وقَدَّمَ وصفه عن المخلوق الذي هو مقدم على خلقه، كان ردنا كما هو مذكور في القرآن) أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ)، وقد كان ردنا بناءً على وصف الله جلَّ في علاه لهذا المخلوق وما فيه من نزعة وميول للشر والظلم، ومعلوم لديكم أيضا ما كان رد الله جل في علاه علينا (قَالَ إِنِّيَ أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ).

لا أخفي عليكم أننا لم ندرك حينها ما كان يقصده الله جلَّ في علاه وبالأخص أنا. ولأن فضولي اتجاه الكون وكل ما فيه كان أكبر من فضول أقراني، منحني الله جل في علاه الحرية للنزول إلى الأرض متى أردت ذلك. أدركت حينها ما كان يقصده إلهي.

بالتأكيد أدركتم أنني ملاك، وأدركتم أنني أتحدث كثيرا، وأنني فضولي.

كما ذكرتُ سابقا، جميل أن تَرَى ولا تُرَى، على الرغم ما للأمر من تأثير سلبي على النفس والمزاج. في جولاتي التي لا تنتهي رأيتكم في جميع حالاتكم، وفي مواقف لا تعد ولا تحصى. أحيانا لا ألومكم، وأحيانا أتمنى زوالكم.. ولكن الحق يقال، عندما تتغلبون على الشر الكامن فيكم ويتحرر الحب في قلوبكم، أتمنى لو كنت مخلوقا من لحم ودم لأحضنكم وأُقَبِّلكم وأبكي وأنا واضع رأسي على أجسادكم.

غريب ما يفعله الحب فيكم.. الحب هو ما يحييكم.

أحيانا يكون حبا للمال، أحيانا سُلطة، وطن، الموسيقى، الحياة، المتعة، الدمار، العائلة.. يختلف حب كل واحد منكم، ولكنكم لا تستطيعون العيش بدون شيء تحبونه، أذكر قول أحدكم عن الحب (إِنَّ الحب هو الشيء الوحيد الذي يقضي على الأنانية بداخلنا، الحب هو الشيء الوحيد الذي يجعلنا نضحي بكل ما نملك حتى أرواحنا، لكي يعيش ما نحب). ولن تصدقوا عدد الذين رأيتهم يموتون لأجل فكرة يحبونها. غرباء أنتم ولكنكم رائعون.

وأنا الآن في مدينة أحبها "طرابلس" أشاهد شخصان أحبهما كثيرا وهما يتحدثان. متعبان ولكنهما مليئان بالجمال:

هو - لكي ينير القمر، لابد من ضوء يسقط عليه.. كذلك النفس لكي تنير، تحتاج ضوءً.

هي - معك حق، ولكنني تعبت. دعنا نسافر

- كما تريدين

- شكرا حبيبي



خططا لرحلة بالبحر والقطار، توجها إلى تونس العاصمة، وهما الآن في الفندق نائمان، بانتظار رحلة الغد.

في صباح اليوم التالي حَزَمَا امتعتهما، استقلا سيارة أجرة، وانطلقا باتجاه الميناء. موعد الرحلة الساعة العاشرة صباحا. كانت سعيدة ومتحمسة، تراقب المارة والمباني باهتمام، في عينيها بريق من كان يحتضر وعاد للحياة. ما إن وصلا للميناء، حتى زادت حماستها. اللون الذهبي على سطح البحر يزيد من شهوة الحلم، والسفينة الراسية على أهبة الانطلاق تجعل حلمها يزيد اتساعا باتساع الأفق.

- هذه أول مرة أسافر بحراً!

- وأظن كذلك أنها المرة الأولى التي ستستقلين فيها قطارا أيضا!

- ماذا نفعل إن كنا من بلد لا بواخر فيه ولا قطارات. وتضحك!!

كان يتأملها كلما سنحت فرصة لذلك، شَعْرٌ لو لم تكن مؤمنة بأن الله أمر النساء بتغطيته، لنسي الحزن كل من يراه، عينان واسعتان يتوسطهما أنف يميل قليلا ناحية اليمين، خدان آسران ومغريان، وشفتاها كذلك، وجسدها لا تنضب الحياة منه. هي دائما جميلة ولكنها اليوم أجمل، كل شيء فيها حي، كزهرة تفتحت بعد سبات دام لأشهر عديدة لتعانق شمس شهر النوار، لو كان بإمكانها لمشت على الماء.

كانت على حافة الرصيف البحري تشاهد الأسماك وتغطس يديها في الماء. التفتت باتجاهه فوجدته مستغرقا يتأملها، أخدت بعض الماء في يدها ورشته به وهي تضحك، ضحك هو بدوره، رغم بعض الحزن الذي مس قلبه، فلم يكن يدرك حجم الأرق والإحباط الذي تعانيه من جراء العيش في بلادهم التي لا بواخر فيها ولا قطارات، ليبيا. كانت أجمل وأرق من أن تعيش فيها، فهذا الوطن نسي كيف يعيش منذ مدة طويلة.

علت صافرة السفينة، رفعت المرساة وتنفس كلاهما الصعداء. كان النسيم خفيفا على سطح السفينة، وطيور النورس تصيح وتترقب ما يرميه المسافرون لها من طعام. بعد أن أصبح اللون الأزرق يحيط بكل شيء ولا يُرَى غيره على امتداد البصر، جلس الاثنان تحت مظلة يحتسيان القهوة.

كانت مشاعره مختلطة، بين الحزن والراحة، فلم يكن يحب فكرة العيش مدة طويلة خارج المدينة التي يحب، طرابلس. لكنه كان مثلها منهكا ومتعبا من الناس، كانت لامبالاتهم وعدم إحساسهم بالمسئولية تعذبانه، لا شيء ينصاع للمنطق أو الضمير الإنساني، الضباب يلف النفوس والعقول

كان لديه كما لغيره من الأسباب الكثير ليشعر بما يشعر به، فالحال دائما أنه هنالك كادحون يعملون للبناء، وآخرون يسرقون ويهدمون، أناس يحاولون لملمة الجراحات، وآخرون يفتحون كل جرح لكي لا يتوقف سيل النزف، أناس تحاول إضفاء بهجة وألوان، وآخرون لا يستهويهم إلا قتل الجمال والفرح

كان مُنهَكا ونسيم البحر خفيفا، مما جعله يغفو كالطفل على كرسيه. لم تشأ أن توقظه، كانت مدركة لتعبه. كلاهما كان يحس بما يشعر به الآخر

أخذت تتأمله وهو غاف، عيناه جميلتان حتى وهو نائم، أنفه مستدير بعكس أنفها المستقيم، فمه صغير وشفتاه ممتلئتان، ضحكت بينها وبين نفسها من فرط حبها لفمه، خداه يغريان دائما بالتقبيل، ومستعدان دائما لتلقي هذه القبل، فكرت أن تقبله على خده، ولكنها خشيت إيقاظه.

هل تفكر في الجنة؟

هل تفكر في الجنة؟

بهذا السؤال، أخرج ياسين صديقه مروان من حالة الشرود التي كان منغمسا فيها يتأمل المارة خلف زجاج المقهى. ارتشف آخر ما تبقى من قهوته، والتفت ناحية ياسين:

- كم أحب هذا المقهى، وهذا الحي (الظهرة)، هنا تكون متيقنا أنك سترى فتيات أشعة الشمس تحنو على شعرهن بلمسات المداعبة. عن ماذا سألتني؟

ياسين - هل تفكر في الجنة؟

مروان - جنة السماء والجزاء. أحيانا! أفكر أكثر بجنة الأرض، جنة الأرض أجمل، لأنها تُنشأ بدم وعرق ودموع، كمن ينحت الصخر بأظافره، ورؤية كل من تحب متوفرة فيها.

ياسين - أفكر فيها كثيرا. ما أجمل أن يتملكك شعور أنك إذا مت ستدخل الجنة. اللهم اجعلنا من أهلها.

مروان – آمين! ما يشد تفكيري للجنة، فكرة الخلود. إنها مخيفة.. أن تعيش إلى مالا نهاية. أَلاَ يفقد الوجود قيمته، تأكل إلى مالا نهاية. تنام إلى مالا نهاية. أَلاَ يفقد الزمن قيمته. أنت مثلا. إن دخلت الجنة ودخلتها أنا، والتقينا وتحادثنا، لن تصبح للقاءاتنا قيمة، لأننا سنلتقي إلى مالا نهاية.. يجب أن تموت لكي أحبك. ويضحك!

ياسين - تبا لك. وتبا لمقدرتك على إفساد كل شعور جميل، دعنا نحلم بالنعيم يا أخي، أنتعذب في الدنيا، ولا يحق لنا أن نتنعم في الآخرة؟

مروان - تنعم يا صديقي تنعم! الحل الوحيد، هو أن يُغيِّر الله تركيبة الإنسان عقليا ونفسيا قبل دخول الجنة ليتحمل الخلود. ولكن إن تغيرنا هل نبقى بشرا؟

ياسين - تبا لك. ويضحك الاثنان!!

يعود الصمت ليجلس معهما، ويتبع الصمت شرود. ياسين يفكر في جنته. في قاصرات الطرف والقصور وصحبة الأنبياء، ومروان يفكر في جنته على الأرض، حيث لا مجاعات ولا أوبئة، وجميع الناس لديها مساكن. تزداد شهوته للحلم فيتخيل محبوبته تضحك!

- سأذهب لأحضر المزيد من القهوة لكلينا. يتكلم ياسين وهو يقوم من مكانه.

مما يخرج مروان مجددا من شروده. ينظر إلى ياسين وهو ذاهب ليحضر المزيد من القهوة، ويقول لنفسه محدثا: حتى في شرودي قبل حلمي لن تتحقق الجنة التي أتمناها. تبا!

ناقصات عقل ودين

كان ممددا على سريره الفردي في شقته الصغيرة (حجرة، صالة، مطبخ صغير، وحمام أصغر) حينما طُرق باب الشقة. نهض من مكانه ليفتح الباب وهو في حالة من اللاشعور، لا يفكر بشيء، ولا يحس بشيء. فتح الباب وتملَّكته الغبطة لرؤيتها، عاد البريق إلى عينيه، والنبض حيويا في قلبه. قبَّلته على خديه ودخلت.

هي في الثانية والعشرين، وهو يكبرها بعام، وضعت حقيبتها على الطاولة الموجودة بالصالة، واتجهت للمطبخ وهي تقول:

- سأعد قهوة، هل تريد؟ بالتأكيد تريد!

رد هو - فنجان قهوة وأنت مجتمعان، أنها منتهى السعادة، ولكن دعيني أعدها أنا.

كان يحب إعداد القهوة بنفسه إذا ما زاره شخص عزيز على قلبه ويحبه.

- لا. سأعدُّها أنا، فأنا أحب خدمتك!

ابتسم لها، وجلس على أحد الكراسي الثلاثة بالصالة، وأخذ يتأملها وهي تعد القهوة. لقد حفظ كل تفاصيل جسدها من كثرة ما تأمله. وكل مرة يتأمله، كان يتأمله بنفس اللهفة، كأنه يراه لأول مرة، كأنه يبحث عن شيء جديد بين زواياه.

التفتت إليه فوجدته منهمكا في تأملها، هزت رأسها يمينا ويسارا وهي تبتسم، أعادته حركة رأسها إلى العالم الواقعي. وأول ما وقع عليه نظره كانت ابتسامتها، فابتسم، لاحظ انفعالها واضطرابها.

- لما أنت مستاءة، ما الذي أغضبك؟

- أحد الطلاب الذين يدرسون معي بالكلية! كان يتناقش مع بعض الطلبة الآخرين، وكان يتحدث عن المرأة أنها، ناقصة عقل ودين، وأنها خلقت من ضلع أعوج لن يستقيم، وإن حاولت جعله مستقيما كسرته.

تصمت للحظات، تستنشق الهواء بهدوء، ومن ثم تستطرد:

- لقد أغضبني كلامه كثيرا. هل حقا قال سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ذلك؟

- لقد حكيتِ لي ذات يوم عن جارتكم المتوفى زوجها.

- العمة سليمة. ما بها؟

- هل امرأة يتوفى زوجها، ويترك لها أربعة أبناء صغار تقوم بإعالتهم وتربيتهم، وعلاج من يمرض منهم ولوحدها، ناقصة عقل ودين؟

- لا. بالتأكيد لا!

- إن الرجل لا يستطيع العناية بعائلة لوحده، ولكن المرأة تستطيع. المرأة أقوى يا عزيزتي.

- آه يا حبيبي ما أجملك.

سكبت القهوة واتجهت للصالة.

- تفضل يا حبيبي

- شكرا.. هل فكرتِ لما يقال أَنَّ المرأة خلقت من ضلع؟

ويقوم من مكانه ليشغل بعض الموسيقى.

- لا.. لم أفكر

- لأنك كما قال زميلك، ناقصة عقل. ويضحك!

وهي تضحك - ناقصة عينك [1]

وعاد ليجلس بجانبها:

---

[1] عينك : تعبير ليبي يعني، تبا لعينك التي لا ترى جيدا

- كم أحب هذه الأغنية (أغنية يا حبيبي لهبة طوجي)

- وأنا أيضا يا عزيزتي.

هو - خلقت المرأة من ضلع، لأن الضلع أقرب شيء للقلب، وهو ما يحمي جميع الأعضاء الحيوية بالجسم. لأن الضلع موجود، يستطيع الإنسان مقاومة الضربات التي يتلقاها. بدون الضلع سيموت الإنسان بعد أول ضربة وصدمة يتلقاها، بدون الضلع (المرأة) لا يستطيع الإنسان المقاومة. بدونك يا ضلعي، لا أستطيع المقاومة.

هي - آه منك. لم أعد أريد القهوة، أريد أن أقبِّلك.

ويغرق الاثنان في بحر من القبلات بطعم القهوة.

ملاك

آه كم أحب فصل الخريف. لم يكن فصلي المفضل، حتى التقيت ملاك، زوجي. اسمه يحيى.

لم يكن يحب أن أناديه ملاك، لأنه اسم أنثوي في ثقافتنا ويطلق على الفتيات، ولكنني في قلبي دائما أناديه ملاك، وسيبقى ملاكي.

كان ملاكي يقدس فصل الخريف، يرى أن فلسفة الحياة تتجسد في هذا الفصل، سقوط الأوراق لتنمو مكانها أوراق جديدة، دورة الحياة التي لا تنتهي. فصل كل الفصول، أو بمعنى أدق، الفصل الذي ترى خلاله كل الفصول، المطر الخفيف تارة، والقوي تارة أخرى، السماء الصافية والشمس الساطعة أحيانا، والملبَّدةُ بالغيومِ محتشمةُ الشمس أحيانا أخرى.. والرياح.

كم كان ملاكي يحب الرياح. كانت لديه تلك الفلسفة، أن الأرواح تطير مع الرياح، وأَّن من يتعلم ركوب الرياح، قد أدرك ماهية الكون وحركته. صوفيا بطريقته الخاصة، على الرغم من أنه يرفض الاعتراف بذلك. كان دائم الترديد لأبيات الحلاج:

يا نسيم الريح ** قولي للرشا

لم يزدني الورد ** إلا عطشا

لي حبيب حبه ** وسط الحشى

إن يشأ يمشي ** على خدي مشى

روحه روحي ** وروحي روحه

إن يشأ شئت ** وإن شئت يشأ

أنظري إلى الحلاج: أدرك ما هي الرياح، لهذا كان يُحمِّلها أشواقه، لا يدرك ذلك إلا الصوفيون يا عزيزتي.

في سني، عندما يكون المرء في العقد السابع من عمره، لا يكون أمامه أشياء كثيرة يفعلها. لذلك أقضي معظم الوقت في حديقة المنزل عندما يكون الطقس جيدا.

هو أيضا كان يحب الجلوس في الحديقة، ولكنه على عكسي لا يحب المكوث هنا طويلا. يحبها لأنها توفر له العزلة عن البشر، كان دائم التكرار لاقتباس سارتر (الآخرون هم الجحيم). عندما سألته ألهذه الدرجة لا تحب البشر. أجاب مباشرة بابتسامته المعهودة والبريق في عينيه (أصل كلمة بشر. شر).. صمت قليلا ثم أردف:

- الجنة من دون أناس لا تداس. أي لا تطاق. لا قيمة للجنة ومتعها بدون أناس يملئونها، ولا للحياة بدون من نحبهم فيها. ولكن هذا لا ينفي يا عزيزتي أن من يصنع الحروب بشر، من يمنع الأدوية عن المرضى بشر، من يسرق الأحلام والفرح بشر، ومن يمصون الدماء والعرق بشر أيضا، لذلك الآخرون هم الجحيم.

كان معقدا وجميلا، يحب السكينة التي تمنحها الحديقة ويخشى الهدوء المستمر. كم أشتاق لعقده وجنونه.



في حديقة المنزل تجلس الجدة وبجانبها حفيدتها ملاك تحتسيان الشاي وتتبادلان أطراف الحديث:

الجدة - أنا بخير يا حبيبتي، ولكنني متعبة قليلا.

- هل هنالك خطب في صحتك يا جدتي؟

- لا. ولكن منذ رحيل عزيزي لا أقوى على الحياة.. أشتاق له كثيرا.

- جميعنا نشتاق له يا جدتي.

- أتعلمين يا حبيبتي لماذا كان جدك يبتسم عندما كنت أناديك ملاكي؟

- لماذا يا جدتي؟

- لأنني كنت أناديه هو. لهذا كنت أتعمد ذكر اسمك كثيرا. وتبتسم الجدة.

- وأنا الذي كنت أظن أنك تفعلين ذلك من فرط حبك لي، وأنت كنت تمارسين رومانسية خفية مع جدي

وتضحك كلتاهما. تصمت الجدة قليلا ومن ثم تعاود الحديث مع حفيدتها:

- أترين تلك الشجرة أمامنا؟

- أجل.

- أترين تلك الورقة الوحيدة؟ كل الأوراق سقطت ومازالت هي تنتظر انتهاء رحلتها، إنني كتلك الورقة، كلتانا منهكتان.

- إن الرياح قوية بعض الشيء هذا اليوم، ربما يجب أن ندخل للبيت يا جدتي، سيصبح الطقس باردا.

- دعينا قليلا يا حبيبتي.

وتقول الجدة محدثة نفسها ولكن بصوت مسموع:

- يبدو أن اللحظة حانت!

- ما الذي حان يا جدتي؟ ما الذي تقصدينه؟

- لا شيء يا حبيبتي. لا شيء!

تشتد الرياح أقوى ويزداد صريرها. كانت الرياح قوية كفاية لتسقط الورقة الوحيدة. لاحظت الحفيدة اقتلاع الرياح للورقة، فقد كانت تنظر إليها وقت اقتلاعها. تحدث جدتها:

- جدتي، انظري لقد سقطت الورقة

ولكن لا صوت ولا حركة تصدر من الجدة، تلتفت الحفيدة باتجاه جدتها، تجدها مغمضة العينين ومبتسمة:

- جدتي هل نمتي في هذا الطقس، يجب أن ندخل إلى الداخل. ولكن الجدة لا تجيب. لقد كانت على موعد مع الرياح. فقد كان ملاكها على الجانب الآخر بانتظارها!

شاي الزعفران

كلما ازداد الحب، ازداد خوف الفقد. هواجسي التي تعرفينها، ازدادت هاجسا. غريب أمر الحب. عندما تحب، تظن أن راحتك ستكون عندما تتلقى حبا بالمقابل وتتفاعل مع من تحب، ولكن للحب أحكام أخرى تسري تقول، لا راحة لك إلا...

ازداد خوفي واضطرابي، وأدركت أنني لن أصل إلى السلام الداخلي ما لم تجمعنا الحياة في بيت واحد. بمعنى أدق لن تكون حياتي حياة، ما لم تجمعنا الحياة في بيت واحد معا.

وضع القلم جانبا، فكر في تمزيق الورق، كان يحس بأن ما يكتبه لها سخيف، تمنى لو كانت أمامه هذه اللحظة، لقبلها ونسى العالم بأسره على شفتيها. فكر في أن يقوم من مكانه، ولكن الكلمات كانت تملئه. تأمل الورق أمامه للحظات، تململ، ولكنه استقر أخيرا على الذهاب ليحضِّر شاي الزعفران.

وضع الماء ليغلي، وشرد بتفكيره يسترد تفاصيل جسدها. مر الوقت وهو مستغرق فيما هو فيه. شروده بها. حتى ذكَّره صوت الماء الذي بدأ يغلي بأن يضع أوراق الزعفران. وضع أوراق الزعفران في الماء المغلي وأطفأ النار وضع

نصف ملعقة صغيرة من السكر في كوبه وارتشف رشفة خفيفة، شرد بذهنه مجددا، تذكر عندما كانا يرتشفان شاي الزعفران من شفتي بعضهما البعض. ارتسمت ابتسامة على شفتيه، كأنما عاد طعم قبلها إلى شفتيه، تناول القلم مجددا، وبدأ يكتب:

بسببك أدركت ما مر به أبونا آدم.. لقد كان أبونا آدم، قبل أن تُخلق أمنا حواء، نصف إله. يطوف في ملكوت الله الأعلى، لا يُأمر ولا يُنهى، تسجد له الملائكة أجمعين.

بخلق حواء أصبح إنسانا يُأمر ويُنهى، دخل الجنة هو وحواء، أصبح يشتهي، يفكر، ويتملكه الفضول، كانت المشاعر في قلبه خامدة ولم تتحرك أو تنفعل إلا بخلق أمنا حواء. كأنما الحياة بُعثت فيه بها، وإنسانيته تحققت بها أصبح إنسانا بخلقها، ودخل الجنة بها ومعها، كأنما الإنسانية والجنة دربهما حواء. عاش في الملكوت الأعلى معها، وفي الجنة معها، وفي الأرض معها، تغيرت عوالمه. وهي الثابت الوحيد في عالمه. كانت هي وطنه (المرأة هي الوطن الذي يعيش بداخله الرجل، إن وجدها أصبح زاهدا في الحياة).

لو كنت أمامي الآن لقبلتك، ونسيت العالم على شفتيك!

أحلام 1

- أين تعيشين الآن؟ هل ما زلت تعيشين في شقتكم؟

- أعيش مع صديقة لي. هي في الحقيقة بائعة هوى، جمعتنا الأحزان ومصاعب الحياة. تعرفت عليها منذ مدة طويلة، كنت أراها في الشارع. ويوما بعد يوم زاد التقارب بيننا. كانت أحاديثنا في البداية أحاديث عامة، نشكو الدنيا وهمومها، مرحة وعفوية، تواجه بؤسها بالضحك، وإذا ما اشتد عليها حزنها، أشعلت سيجارة تحرقها بين شفتيها وتحترق معها، وأحيانا تدخن الحشيش.

انتقلتُ للعيش معها، بعد أن عَلِمت بأنه لم يعد لدى مال ولا أقارب لأعيش معهم. كانت الظلمة قد حلت عندما غادرت نوره شقة مروان راجعة إلى مسكن صديقتها بائعة الهوى أحلام. لم تكن تحس بالخطوات التي تمشيها، ولا بالشوارع التي تقطعها، فقد كانت غارقة في التفكير، وكانت أوصالها ترتعد كلما تذكرت ما كانت مقبلة عليه.

- ماذا سأقول الآن لأحلام، كيف سأخبرها أني خرجت اليوم لأبيع جسدي مقابل مال، وهي التي دائما ما تذكر لي أنها مستعدة لتقاسم الفراش والخبز معي، ولم تشتكي يوما من أعبائي الملقاة على عاتقها.

ما حدث قد حدث، بالتأكيد ستعذرني، فهي تدرك حجم المرارة التي أحسها في كل لقمة آكلها من فائض خبزها وحنانها، وتدرك أيضا أنني أتعذب من كل ليلة أقضيها دافئة، تدفع هي جسدها مقابلها، بالتأكيد ستعذرني.

نوره؛ فتاة جميلة، حنطية البشرة، خدود متوردة وعينين عسليتين، يكسو وجهها اللطيف بعض النمش، كنجوم تزين سماء، تبلغ من العمر ثمانية عشر.

فتحت نوره باب مسكن أحلام ودخلت، فأطلت أحلام برأسها من باب المطبخ مخاطبة نوره:

- مرحبا، هل خرجت للتمشي؟

- أهلا أحلام، أجل فقد مللت الجلوس بالبيت!

- تعالي وساعديني بالطبخ، لقد كان اليوم جميلا وأنا سعيدة

فكرت نوره في قول ما حصل لأحلام بينما هما مشغولتان بتحضير العشاء والثرثرة، ولكنها آثرت إخبارها بعد تناول العشاء عند احتساء القهوة، فلم ترد إغضابها وإفساد عشاءها.



أشعلت أحلام سيجارة، وكانت هذه إحدى المرات القليلة التي تدخن فيها بارتياح، وجلست بجانب نوره تحتسي القهوة:

- لم أخرج اليوم بهدف التنزه والمشي، لقد ذهبت إلى شقة مروان!

وبدأت نوره في سرد ما حصل دونما أن تترك فرصة لأحلام للنطق بكلمة. استرسلت في السرد وفي ذكر الدوافع والتفاصيل، وأحلام تتبدل مشاعرها بين الاضطراب والفرح، الغضب تارة، والإعجاب تارة أخرى.

ظلت أحلام للحظات تنظر إلى نوره في صمت، ثم التفتت إلى الجهة الأخرى، وسقطت من عينها دمعة رأت نوره انعكاس ضوء المصباح فيها.

- آه يا نوره، لو كان نصف ذكور الدنيا مثله، لكانت الحياة شيئا آخر. وماذا قررت؟

- لا أعرف، فقد وعدته بالانتقال إلى شقته غدا، ولكنني خائفة!

- أقسم يا نوره، أنك إن لم تذهبي غدا، سأذهب إليه وأحضره إلى هنا ليأخذك معه.

ومالت باتجاهها لتحضنها، قبلتها على عينيها وهمست:

- إن مثله لا يأتي من جانبه شر أبدا، وحتى إن مارستما الخطيئة، فأنا متأكدة إن الله سيغفر لكما، فالله دائما يغفر للصالحين والطيبين.

قضت نوره وأحلام ليلتهما ساهرتين في الفراش، كل يفكر في صمت. نوره تفكر في الغد، في الانتقال للعيش مع هذا الغريب الذي طلب منها أن تعيش معه كأخت تهتم بشؤون المنزل وتطبخ مقابل مرتب شهري. حمدت الله على أن الظروف لم تسمح لها بالقيام بما كانت تنوي القيام به.

غلبها النعاس بعد أن أرهقها التفكير، ولكنها اهتدت إلى أن الله معها، وأخوها يرعاها بدعائه وأمنياته.. أغمضت عينيها ونامت. أحلام غلب دمعها على تفكيرها، للدرجة التي بللت فيها وسادتها، نامت هي أيضا، بعد أن غسلت آلامها بالدموع. أما مروان، فقد قضى وقتا في التفكير أكثر مما قضت نوره وأحلام مجتمعتين يفكر في الفتاة التي طرقت بابه بغية بيع جسدها، بعد أن ضاقت بها الحياة. مسكينة هي، والداها توفيا في الحرب التي اشتعلت في وطنهم، هاجرت مع أخيها إلى هنا هربا من وطن تنهشه الحرب بحثا عن حياة وبعض السلام.

أخوها، كم هو رائع هذا الأخ. واسترجع حديث نوره عن أخيها والجلسة التي جمعتهما، ليس لي في الدنيا إلا هو، وهو ليس له في الدنيا سواي. يكبرني بخمس سنوات، اسمه مُعين، كان بالسنة الثانية بالجامعة حينما قدمنا إلى هنا،

كانت الحياة جيدة نسبيا أول ما قدمنا، استطعنا تأجير شقة صغيرة، وأدخلني إلى المدرسة لأكمل تعليمي.

لم يكمل تعليمه لأنه اضطر للعمل، فلم يكن المبلغ الذي أحضرناه معنا يكفي لسنوات طويلة، كان بالكاد يكفينا لسنتين أو ثلاث، لم يكن يعمل بوظيفة ثابتة، وإنما يتنقل من عمل إلى آخر تبعا للظروف، وتبعا للعمل الذي يجده، فأنت تدرك واقع الحال هنا.

في نهاية العام الماضي أصبحت الأمور صعبة، فالمبلغ الذي أحضرناه معنا يشرف على النفاذ، وكنت بالسنة الأخيرة بالمدرسة الثانوية. أصبحت الضغوطات مرهقة جدا بالنسبة إليه، فهو كان يريد إدخالي الجامعة لأكمل دراستي، ولم يكن لديه المال لذلك، ولا لدفع الإيجار بعد شهرين.

ورغم كل ما كان يقاسيه ويعانيه، لم يصرخ يوما من الانفعال أو يتذمر، بل حافظ على ابتسامته وهدوئه، لم يكن يريد أن يشعرني بالقلق أو التوتر، أو أن الوضع صعب جدا.



كان مروان يستمع إلى حديثها وهو منبهر بهذا الإنسان إلى الحد الذي أنساه تفاصيل هذه الجلسة، والدافع لقدوم هذه الفتاة أمامه. حتى تفاصيل وضعنا

المالي لم يكن يطلعني عليها بالكامل، يحكي لي من باب الفضفضة لأكثر إنسان يحبه بعد أن يزين الجمل ويختار مفردات لا تشعرني بصعوبة الوضع.

كان يكتفي بجملٍ مثل، علينا أن نقتصد قليلا هذا الشهر، أو أن الأجر الذي يتلقاه حاليا ضئيل قليلا، وينهي حديثه بابتسامة ملؤها أمل. وحتى حقيقة أن مالنا يشارف على الانتهاء، لم أعرف بها إلا..

وهنا بدأت ببكاء شديد، بكاء كأنه كان مُخزنا لسنوات، وأُطلق له العنان الآن. أحنت رأسها إلى الأسفل، ووضعت يديها على عينيها وازدادت حدة بكاءها للحد الذي جعلها تشهق.

فكر في وضع يده على رأسه ليواسيها، ويحملها على التوقف عن البكاء، ولكنه امتنع عن ذلك خشية أن يصيبها الهلع. قفزت إلى دماغه جملة كان قد قرأها في كتاب جبران خليل جبران، كانت أمه تقولها عندما يسألها جبران عن سبب بكائها:

- اسمعي. إن الدموع هي القلب، يخرج من العينين عندما يضيق به الصدر، توقفي قبل أن يفر قلبك من صدرك.

استطاعت هذه الجملة أن تخرجها من حالة الهستيريا التي أصابتها، فقد تذكرت أنها تبكي أمام غريب، ومن المعيب أن تفعل ذلك. بدأت تحاول لملمة

نفسها والتنفس ببطء، وقام هو ليحضر لها منديلا تمسح به دموعها. ناولها المنديل وعاد للجلوس على كرسيه، وقال لها مع تنهيدة:

- تناولي قهوتك تكاد تبرد.

تناولت رشفة من القهوة، تبعتها رشفة أخرى. أعادها السكون إلى هدوئها مجددا، وعادت تكمل حديثها. لم تكن تريد تذكر ما حصل، أو ذكره للناس، ولكن رغبة قوية للحديث معه كانت تجتاحها، فقد كانت تحس بالدفء والسكينة:

- كما قلت لك، لم أدرك حجم الأزمة التي كان يمر بها أخي، وحقيقة وضعنا المالي، إلا عندما وجدت ورقة كتبها وتركها على الطاولة.

كتب فيها أن آخر مبلغ يملكه هو هذه الألف جنيه الموضوعة بجانب الورقة، وأنه قام باقتراض مبلغ من المال ليهاجر به إلى أوروبا هجرة غير قانونية، وأنه سوف يرسل لي المال بمجرد حصوله على وظيفة، وأنه سيرسل لي للحاق به بمجرد تأمينه لمسكن. وختم:

(أختي.. أعلم أن ما قمت به خطأ، ولكن لم يعد أمامي خيار. إن نجحت في الوصول إلى أوروبا، فإن حياتنا ستتغير إلى الأفضل، وسأتمكن من تأمين الحياة الكريمة التي أتمناها لك، وأُعوِّضك عن سنوات الشقاء. انتظري رسالتي القادمة. أخوك الذي يحبك أكثر من الحياة)

لقد كانت هذه أول مرة يكذب على فيها. فلم يرسل رسالته التالية التي وعدني بها، ولن يرسلها أبدا. وعادت الدموع تسيل من عينيها:

- فقد غرق مركبهم وفارق الحياة

أحس مروان بالألم يعتصره، أيعقل أن هذا العظيم، الذي تمنى قبل لحظات أن يتعرف به، ابتلعه البحر. كيف ارتضى أن يبتلع شخصا مثله. من هو مثله يجب أن يمشي فوق الماء، لا أن يبتلعه. كيف يختاره الموت، ويترك الحقراء الذين يمتلئ بهم وطنه، بل تمتلئ بهم كل الدنيا.

استمر مروان في التفكير، وأخذه تفكيره ناحية أحلام. وأحلام التي تمثل بطبيعتها أغلب بائعات الهوى بضعفهن وطيبتهن، بصبرهن وقوتهن على التحمل. توفر لنوره المسكن والطعام حبا.

لا علاقة دم أو قربى بينهما، فقط جمعهما الحب والألم. ولكن هذا ليس بغريب عليهن، فمعظم من رماهم الزمن ليمتهنو مهنتها، يعولون أسرهم، يوفرون الطعام والمال القليل لأخوتهم، وكثيرات منهن كن سببا في إكمال أخوتهم للدراسة.

الدنيا غريبة، والإنسان أغرب كائن بها، الدنيا غريبة ولكن أحكامها ثابتة. أناس تبيع أعضائها، وجسدها لتعيل من تحب. وأناس تبيع أوطانا، وتزهق الأرواح، لأجل امتلاك قصور بها أحواض سباحة.

اللهم لا تُغَيِّب علينا شمس الاشتراكية.

قبل صورة حبيبته. أغمض عينيه، وهو يردد: اللهم لا تُغَيِّب علينا شمس الاشتراكية.. ونام!

زهرة 1

أنا زهرة. موجودة الآن في بيت صاحبته التي تقطن فيه الاشتراكية، لا أعرف معنى الكلمة ولكنني أسمعها ترددها دائما، وتصف نفسها بها. اشتراني شخص ما من محل لبيع الورود ونباتات الزينة وأنا حية داخل أصيص للنباتات. سمعته يخبر صاحب المحل عن سبب طلبه زهرة حية في أصيص، وليس أزهارا أو ورودا مقطوفة.

أخبره أنه أهدى لصديقته ورودا مقطوفة، فاحتجت عليه لأنه أهداها جثة حسب وصفها، وأن هذه الورود لو لم تقطف، لعاشت ليالي أكثر بكثير، تحت الشمس والقمر. لذلك يريد أن يهديها زهرة حية. وها أنا هنا الآن، أعيش مع الاشتراكية.

آه نسيت أن أخبركم، هي أيضا اسمها زهرة!

غرفتها مثلها دافئة مشرقة، وبها بعض الفوضى الجميلة، معظم الوقت تغني الأنشيد الأممية. هي الآن خارج البيت، هناك على الشاطئ، يمكن رؤيتها من النافذة هنا.

زهرة على الشاطئ..

- ليس بالضرورة أن تفعلي شيئا، أحيانا عدم فعل شيء، هو شيء. أليس كذلك؟

قالتها وهي مغمضة العينين ممددة على الشاطئ. لم يكن بجانبها أحد، كانت تخاطب نفسها.

النسيم خفيف ولطيف، ولا مد ولا جزر، حتى البحر كان يتفق معها، عدم فعل شيء، هو شيء. وكلاهما اختارا عدم فعل شيء يذكر. تغير الجو قليلا، الهواء أصبح أكثر برودة، وحركة المد والجزر أصبحت أكثر نشاطا، أخذت تفرك يديها لتدفئ نفسها وهي تنظر للبحر.

كان المد والجزر يزدادان كلما ازدادت برودة الهواء. ضحكت من فكرة أن البحر ازدادت حركته لأنه يريد أن يدفئ نفسه. حتى البحر.. لا يحتمل البرودة، نهضت وغادرت.

أمام العمارة حيث تسكن، وجدت جارهم الخمسيني أمام باب العمارة جالسا. حيَّته وسألته عن أحواله، رد الرجل:

- بخير يا ابنتي، إن لم يسقط هذا البناء على رؤوسنا!

البناء قديم عمره يفوق التسعين عاما، ولم يرمم أبدا رغم احتياجه الشديد لذلك، يكمل حديثه:

- لم نترك باب مسؤول لم نطرقه، ولكن لا حياة لمن تنادي. وهذه القمامة التي تتراكم كل فترة كأنها تلال، بالأمس وأنا أمام المقهى، صف رجل سيارته أمام المقهى ونزل ليأخذ كوب قهوة، كانت زوجته معه في السيارة، كانت تتناول شوكولاتة. بعد أن أنهت تناول الشوكولاتة، رمت الغلاف من النافذة، وأخرجت من حقيبتها منديلا معطرا ومسحت يديها. تهتم بنظافة يديها وترمي القمامة في الشارع! هؤلاء القذرون من الداخل مُدَّعو المثالية، كم تمتلئ المدينة بهم.

وضحك الاثنان..

صعدت الدرج المتهالك، على الرغم من صعودها ونزولها المتكرر يوميا من الدرج، دائما تشعر أن الدرج سيهوي ويسقط تحت قدميها. وقبل أن تغيب عن النظر نادتها صديقتها من أسفل الدرج.

فتحت باب الشقة ودخلت هي وصديقتها، سَلَّمَت على والديها اللذين كانا يحتسيان الشاي معا وذهبت برفقة صديقتها إلى غرفتها.

ها قد جاءت زهرة، وبرفقتها صديقتها. الزهرة داخل الأصيص تتحدث، اسم صديقتها ياسمين، تعرفتْ عليها بإحدى الدورات التدريبية.

ياسمين مولعة بالنشاط الاجتماعي. ذات مرة قامت ببرنامج تلتقي من خلاله الأطفال الذين يعيشون وسط عائلات مضطربة ومفككة، من يقضون معظم

أوقاتهم في الشوارع بهدف تعليمهم السلوك الجيد.. مرة تزور دار أيتام.. ومرة تقوم بتوزيع الطعام على العمال الأجانب. وذات يوم كانت ياسمين تعرض على زملائها في الدورة التدريبية زيارة دار العجزة. وافق ولدان وثلاث فتيات، وعند سؤالها زهرة إن كانت ترغب بالذهاب معهم، ردت زهرة:

- لا شكرا. أنا خارج الموضوع!

سألتها ياسمين عن سبب عدم رغبتها في الذهاب، لم تكن تسأل أي أحد ممن اعتذر عن سبب اعتذاره عن الذهاب، كانت هذه أول مرة تسأل. أجابتها زهرة بأنهم سيذهبون، وسيُسَرُّون بما يقومون به، سيشعرون بالرضا لأنهم أدخلوا السرور والفرح لقلوب كبار السن الذين لا يزورهم أبنائهم إلا ما ندر. وبعد أيام سينسون ذلك، وسينساهم كبار السن كذلك، فقد مر قبلهم المئات، وسيمر بعدهم المئات.

لن تعودوا إلى هناك، ستبحثون عن شيء آخر تقومون به يشعركم بالرضا والانسانية، وستأخذكم دوامة الحياة اليومية، ستعودون لما يشغلكم من أمور. برأي إن لم تلتزموا بزيارتهم فلا داعي لذلك. صمت الجميع، ومرت لحظات، ياسمين تفكر بما قالته زهرة. وبعدها تكلمت:

- أنا أيضا انسحب!

نظر الجميع باستغراب لما قالته ياسمين، ولكنهم لم يفكروا به مطولا. ذهبوا إلى دار العجزة، مرت أيام وهم يشعرون بالغبطة، وبعدها نسوا الأمر، ونسيهم كبار السن كذلك.

منذ ذلك اليوم توطدت علاقة ياسمين بزهرة.

زهرة 2

- أعلم أن فقدها صعب، ولكن على الحياة أن تستمر. لو كانت هنا لما ارتضت رؤيتك هكذا!

تناول كل ما في كأسه دفعة واحدة. نظر إلى صديقه بعينيه اللتان لم تعد فيهما حياة، ورد:

- لو كانت هنا، لما كنت أنت هنا

- ولكن...

أشار إليه بيده لكي يصمت. يستمر الصمت في المكان للحظات

- أتعلم أين رأيتها أول مرة؟

- لا

- في مظاهرة تطالب بأن يصبح العمال ملاّكا لأسهم في المؤسسات التي يعملون بها!

يرفع رأسه باتجاه السماء كأنه يبحث عنها؛ كانت ترتدي جينز أزرق، وقميصا يعلو الركبة بقليل، تلف حول عنقها وشاحا خفيفا بخفة شعرها المتموج.

يتنهد، ويعود لينظر باتجاه صديقه:

- لو رأيتها ذلك اليوم. ترفع قبضتها إلى أعلى نقطة في السماء وتُطَوِّح بها، كأنها تريد تدمير شيء مقيت يضايقها.

- أجل لقد كانت جميلة ورائعة؟

- لقد كانت زهرة في مكب نفايات؟

لم يستطع مقاومة دمعه أكثر من ذلك.

- كم اشتاق للحديث معها ومجادلتها.

يخرج منديلا من جيبه ويمسح دموعه. يبتسم:

- هل تذكر عندما كنا نجلس أنا وأنت وياسين، ودخلت هي علينا وقامت بتقبيل الجميع. وتعلو ضحكتهما:

- أجل. يومها كاد عقل ياسين أن يتوقف.

وتزداد حدة ضحكهما، لقد قال لها:

- معظم الفتيات اللواتي أعرفهن من أقارب وزملاء لا يصافحن، وأنت تحيّنني بتقبيل وجنتيْ.

يومها ردت عليه زهرة:

- عندما يرتاح الأطفال لأحد أو يحبونه، بماذا يعبرون عن مشاعرهم وحبهم؟

- بالأحضان والقبل

- لأن هذا هو السلوك الطبيعي والفطري للتعبير عن المشاعر. ولكن نحن بطبيعتنا نخشى كل ما هو جميل وفطري!

- أخشى أن يقال عنك كلام يطعن فيك يا زهرة، فالناس هنا لا همَّ لهم إلا من هم بجمالك؟

- لا أهتم يا ياسين. من يهم هو أنتم، من أحبهم ويحبونني. أما الآخرون، فلا أهتم لهم ولا لمقاييسهم عن الأخلاق، سيحكم الله بما يراه، وأما أعرافهم ونفاقهم فلا أدين بها.

- إنها أجمل من هذا البلد وهذا العفن المسمى عُرف. إلههم الذي يعبدون. لهذا اختارها الموت، لم تخلق لتعيش هنا!

- إنها زهرة نبتت في غير أرضها، أو ربما كانت هذه الأرض وهذا البلد خُلقا لها ولمن هم مثلها، ونحن هم المتطفلون!

يعود الصمت والحزن ليخيما على المكان مجددا..

وحدة

كان يجلس وحيدا، على صخرة هي أيضا وحيدة في هذا الركن من الشاطئ حينما جاءت فتاة وجلست على مقربة منه تفصلهما عدة أمتار. في بادئ الأمر، استغرب قدوم فتاة في بداية العشرينات من عمرها إلى الشاطئ بمفردها. قال لنفسه محدثا: ربما تسكن بأحد البيوت القريبة من الشاطئ!

شعر بالبهجة لقدومها، قدومها طرد الوحشة عن المكان. فوجود الفتاة في أي مكان يمنحه حيوية وبهاء.

عاد مجددا ينظر باتجاه البحر، غرست الفتاة قدميها في الرمل بعد أن خلعت حذاءها، وأخذت تفرك قدميها بالرمل، كأنها تريد من الرمل والملح أن ينفذا إلى جسمها ويملئان مسامها. أرخت الدبابيس التي تشد الوشاح الملفوف على رأسها، مما زاد شعورها براحة أكبر. كان الوقت عشية قبيل الغروب بساعة، وكانت الشمس لطيفة. فشمس طرابلس لا تمنح لطفها ولا حنانها، إلا قبيل الغروب، كأنها تعتذر لكل من لفحهم حرها طوال اليوم.

ألقت بنظرها في الأفق، تتأمل التقاء أزرق البحر بأزرق السماء، تتبع بنظرها الأمواج وهي تتهادى مع النسيم. تراقب طيور النورس في حركتها الدورية لالتقاط الأسماك، أحيانا تنجح، وأحيانا تخرج كما دخلت.



أخذها انعكاس أشعة الشمس على صفحة الماء، إلى أولى ذكرياتها عن البحر. كان عمرها بين الثالثة والرابعة. كانت ترتدي ثوبا صيفيا مزينا بالألوان مكشوف الكتفين ويعلو ركبتيها. كانت سعادتها لا توصف وهي تشاهد هذا المد من اللون الأزرق، ومئات الأشخاص يملئون المكان. الأطفال أمامها يتراشقون بالماء، تريد الانضمام إليهم، ولكن خوفها من هذا المد الأزرق جعلها لا تُقدم. شد نظرها الأطفال الذين يركلون الموج بأقدامهم، هي أيضا تريد ركل الموج. ازدادت حماستها وأخذت تنط في مكانها، أمسكت بحافة ثوبها وأخذت ترفرف بيديها وهي تنط. تذكرت والدتها التي تصرخ عليها كلما رفعت ثوبها وهي تلعب (أنزلي ثوبك). في حركة لا إرادية التفتت باتجاه أمها بانتظار صرختها. زادت بهجتها عندما وجدت أمها مشغولة بترتيب حاجياتهم ولم ترها. كان والدها يقترب منهم جالبا آخر حاجياتهم من السيارة، ركضت باتجاهه ممدودة اليد تريده أن يأخذها للبحر.

بيد ممدودة وهي جالسة أغلقت يدها كأنها تريد استعادة تلك اللمسة وتلك اللحظة، تذكرت والدها الذي غادرهم وغادر الحياة. فر الدمع من عينيها.

أحنت رأسها ووضعت يديها على وجهها وأخذت في البكاء. هب نسيم قوي طَيَّرَ وشاحها الملفوف حول شعرها.

التفت عمر للشيء الذي سقط بقربه. قام من مكانه ليعطي للفتاة وشاحها. أخذت تمسح دموعها بسرعة قبل وصوله.

ناولها الوشاح:

- تفضلي

- شكرا

لاحظ آثار الدمع على عينيها، تردد في أن يسألها، ولكنه استحى من ألاَّ يسألها:

- كنت تبكين، هل هناك أي شيء؟ هل يمكنني مساعدتك؟

وهي تضع وشاحها على رأسها:

- شكرا. فقط بعض الحزن!

أومأ عمر برأسه بمعنى حسنا، والتفت ليعود لمكانه، لصخرته الوحيدة، أوقفته كلمات الفتاة:

- أنا وحيدة

لم تعرف لماذا خرجت الكلمات، ولكنها خرجت، التفت لها عمر:

- كلنا وحيدون. كلنا!

صمتت للحظات وعادت للحديث مجددا:

- لقد اشتقت لوالدي. كان صديقي الوحيد. أنه متوفي.

- يتقبله الله برحمته

لاحظ عمر نجمة خضراء مرسومة بقلم حبر أخضر على راحة يدها اليسرى

- ما هذه النجمة في راحة يدكِ؟

وهي تنظر إليها:

- عندما تتملكني الوحدة، أصعد إلى سطح المنزل، أهرب من الناس والوجود بحثا عن نفسي. أراقب السماء وأسرح بروحي بحثا عمن أحبهم في الفضاء الرحب. من غادروا الدنيا، ومن لم التقي بهم بعد. أنسج الأمنيات وأُعَلِّقُها بإحدى النجمات، فهكذا تكون أقرب إلى الله وإلى النجوم الأخرى. ولكي لا أنسى أمنياتي أو يغلبني اليأس، فإنني أرسمها على يدي، لكي أتذكرها كلما نظرت إليها.

- ولماذا ترسمينها بلون أخضر؟

- لا أعلم. ربما لأنه لون الأمل والحياة!

يخرج عمر يده اليسرى من جيبه ويريها راحة يده. نفس النجمة، نفس اللون، ونفس المكان:

- ألم أقل لكِ بأننا كلنا وحيدون!

تبتسم:

- رفيقي ما اسمك؟

- عمر

- وأنا هناء. وتمد يدها لتصافحه

يهبُ النسيم مجددا، ومجددا يُطيِّر وشاحها. ينحني عمر ليلتقطه، تتكلم:

- دعه في مكانه. وتمد يدها لعمر.

يمسك بيدها وهي تنهض للوقوف، وهي ممسكة بيده، ويداهما متشابكتان بقوة، يتجهان للبحر معا. فما زالت تخشى الدخول بمفردها للبحر!

الملاك جلال

مرحبا مجددا.. أنا الملاك الفضولي!

أنا الملاك الذي حدثتكم في المرة الماضية، الذي أعطاه الله حرية النزول إلى الأرض، والذي أصبح الوقت الذي يقضيه في الأرض أحب إليه من الوقت الذي يقضيه في السماء. بالتأكيد كل يوم أتعرف إلى أناس جدد ومواقف جديدة، وحكايات جديدة. ولكن يبقى هنالك أولئك الأشخاص الذين أتردد عليهم باستمرار، لأطمئن على حالهم. ومن ضمنهم هذا الشخص الذي سأسرد لكم ما قاله بلسانه.

قبل أن أسرد.. أنا اسمي جلال.. لمن يتساءل عن اسمي، سأسرد الآن ما قاله، هنالك دائما تلك الفجوة التي تتسع كل يوم. من فضائل الحياة ومن لعاناتها أن تدرس الإدارة والاقتصاد. عندها تمنحك الحياة الأدوات لفهم البيئة المحيطة، وفهمِ أكثرِ عنصرٍ مؤثرٍ بتلك البيئة المحيطة، الإنسان الربحي. يوصف ضمن الاقتصاد بالرأسمالي، ويصفه الناس العاديون بالإنسان الشجع. وحتى الله جلَّ في علاه، خصهم بذمه (الذي جمع مالا وعدده). (يكنزون الذهب والفضة). (ويأكلون التراث أكلا لما * ويحبون المال حبا جما)

وحتى عندما أراد أن يخاطبهم جلَّ في علاه، خاطبهم باللغة التي يفهمون، لغة الربحية والتجارة (هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم) لأنهم يرون في كل شيء صفقة ماذا يفوزون من خلالها، هم موجودون، وأنا أو نحن، لا نملك شيئا إلا أن نكرههم، ونتمنى زوالهم، مع أنهم لا يزولون، فقط يفنون.. عندما يفنى الكون.

ربما يتساءل بعضكم لما هو ساخط هكذا؟ في البلد الذي هو منه ليبيا، وصدقوني هو من أغرب البلدان، بلد التناقضات. بلد الموارد الممتازة، والشعب الذي لا يعيش وفق هذه الموارد. حيث تجد أفضل الناس وأحقرهم، هنا تجد الكثير ممن يقسم عليك خبزه ومسكنه، والكثير ممن يمص دمك ويسرق عرقك، وحتى دمعك.

أعود إلى السبب الذي جعله يسخط.. وتبا له كثيرا ما يجعلني أسخط معه. في بلده الذي هو منه ليبيا. إذا أراد الشخص أن يذهب لأداء عمرة، فعليه أن يذهب عن طريق مكتب خدمي، فسفارة البلد التي فيها بيت الله الحرام مكة، لا تمنح التأشيرة إلا عن طريق مكتب. سيقول كثير منكم ما المشكلة، فالسفارة لا تريد الازدحام، والمكاتب تقدم خدمة، وتعتبر مورد رزق لكثير من الناس، ولكن أريد منكم أن تسمعوا وجهة نظره، ما جعله يسخط.

ومجددا أكرر، هذا كلامه هو وليس كلامي أنا الملاك جلال. أنا فقط أسرد لكم ما قاله، وما حدث معه عندما سَأل أحد العاملين بأحد المكاتب عما إذا أراد

الشخص الذهاب بنفسه، يحجز طائرته بنفسه، وإقامته هناك بنفسه، فهل من طريقة لذلك، أجابه موظف المكتب، بأن الطريقة لذلك هي توفير مكتب خدمي التأشيرة لك، وتسمى التأشيرة الحرة، وسعرها ألف دينار.

احتار من ارتفاع السعر، فسأل: لما هي مرتفعة؟

فأجابه صاحب المكتب؛ أن سعرها في السفارة مئة وخمسون دينار، لكن المكاتب تبيعها بألف.

شعر بالضيق الشديد من استغلال المكاتب، وبدأ كرهه لهم، وازداد ضيقه وكرهه عندما علم أن كل هذا يسمى بالسياحة الدينية، كيف يمكن أن تربط عبادة ضرورية بالسياحة.

في الفترة الماضية أراد الذهاب لأداء العمرة، كان بمفرده، وكل الحجرات بالفنادق ثنائية، ثلاثية، رباعية، وحتى خماسية.. إلا الفردية. أخبره صاحب المكتب أنه إن لم يتوفر شخص آخر، أو مجموعة يُضم إليها، فإنه سيدفع ثمن الحجرة الزوجية كاملا، أي ألفين وخمسمئة دينار وهذه أرخص شيء ضمن برنامج السياحة الدينية، بالإضافة إلى ثمن تذكرة الطائرة ألف دينار، مما يجعل المجموع ثلاثة آلاف وخمسمئة دينار.

ولكن صاحب المكتب أخبره بوجود شخص جيد يريد الذهاب، فهل يضعهما في نفس الحجرة، عندها سيدفع ثمن نصف الحجرة فقط، أي ألف ومئتان.

وافق.. فلم تكن لديه مشكلة في الإقامة مع شخص آخر. وافق، وأصبح مصيره معلقا بشخص آخر.

انتظر، وكانت النتيجة أنه لم يذهب. فقد تم منح التأشيرات والتذاكر لأصحاب المستويات الأعلى في الحجز، من اختاروا المستويات التي تتطلب دفع المزيد من المال. فحسب السياحة الدينية، يقسم برنامج العمرة إلى مستويات، من الأعلى سعرا إلى الأقل.

وبحكم أن كل مكتب لديه عدد محدد من الكراسي في كل طائرة، فإن أصحاب المستويات الأعلى هم الأولى بمنحهم الكراسي، لأن الربحية المادية التي تأتي من خلالهم أعلى.

وحتى يأتي يوم يتم فيه فصل العبادة عن السياحة، وتتوقف المكاتب الخدمية عن استغلال حاجة الناس ورغباتهم. وتعود سفارة الدولة التي يوجد بها بيت الحرام مكة لمنح التأشيرة للمواطنين مباشرة دون وسيط لمن يريد ذلك، يبقى لا مكان لمن لا مال كثير لديه. ويبقى الذهاب إلى مكة، لمن أستطاع إليها سبيلا، وأشياء أخرى!

هواجس ليلى

كانت تجلس وحيدة عندما دخل الشرفة. تسمر في مكانه للحظات يتأمل كتفيها العاريين. فقد كانت ترتدي ثوب نوم واسع، يكشف عن كتفيها وساقيها، وكانت هذه أول مرة يراها هكذا.

وهي تبتسم:

- هل تتأمل جسدي.

هو:

- اعذريني، للجمال سلطان. ويصافحها!

تزداد ابتسامتها وهي تصافحه:

- لو كانت نظرات جميع الذكور كنظراتك، لما اضطرت امرأة أن تعامل جسدها على أنه عورة، وتلتحف السواد.

يجلس بجانبها، وتناوله فنجان قهوة..

اسمها ليلى، وهي طبيبة، تكبره بعام واحد، هي في الثامنة والعشرين، وهو في السابعة والعشرون. وجه جميل يريح الناظر، عينان واسعتان حالمتان

وحائرتان. فم ليس بصغير ولا كبير، يفرض عليك مرارا أن تلقي نظرك إليه، دائم الحركة، إما كلاما، أو ابتساما، أو ضحكا. أنف منتصب القامة، رأس يميل دائما للأعلى، كأنه رُكِّبَ هكذا. شعر كستنائي جميل، كلون شعر أمه، مما يزيد تعلقه به، لأنه يذكره بأمه، محجبة، ولكنها لم تكن تغطي شعرها أمامه.

كانت العلاقة بينهما، علاقة صداقة من نوع غريب. علاقة لا ينبتها لا العرف ولا الثقافة التي يعيشان في كنفها. صداقة ترتوي من نهر الحب الخالد، تظللها الأخوة.

كان محمد يصف ما بينهما بالبذرة التي نبتت في القلوب، ترتوي بالحب وتتغذى على النور، حتى أصبحت شجرة يغطي ظلها الجميع.

هي: هل تعلم لما طلبت رؤيتك والحديث معك؟

هو: أجل! أدركت ذلك عندما وجدت حفل زفاف بالقرب من منزلكم.

كانت ليلى تشعر ببعض الحزن كلما حدث حفل زفاف بالقرب من منزلهم، لا تحب الذهاب لحفلات الزفاف في الغالب. فقد كانت إجابتها عندما سألها محمد ذات مرة عن سبب ذلك، أنها لا تذهب إلا إذا كانت تربطها علاقة محبة

بأحد العريسين. ولأن حفلات الزفاف حسب وصفها، سوق كبير تعرض فيه الأجساد وتشترى.

يتناول محمد رشفة قهوة، وتدندن هي مع أغاني الفرح.

هي: أمي في حفل الزفاف.. وتستطرد:

- طرابلس جميلة في الليل، وما يزيد جمالها أنك فيها. تبتسم. وتستمر في الدندنة.

تخاطب والدها الجالس في الصالة يشاهد التلفاز:

- حبيبي هل تناولت دواءك.

يرد عليها الوالد: أجل يا حبيبتي.

تتأمل المارة، والسيارات، والمحلات، يسيل الدمع من عينيها: أنا مشتاقة له!

يرد محمد: وهو أيضا يشتاق لك!

لم تكن تتكلم عن شخص محدد، بل عن الشخص الذي تحلم بالارتباط به، شخص رسمته روحها، واستشفت الصورة بقلبها.

هي: لا أريد أن يكون مصيري كمصير معظم من تزوجن، لا أريد أن تخبوا روحي، أتعرف ما هي مشكلة معظم النساء هنا؟

ينظر إليها محمد بمعنى؛ ما هي؟

- أنهن يحلمن بشخص كريم الخلق، يُعَوضهن عن حرمان السنوات، ويرتق ما فتقه الزمن، يكون بلسما يداوي جروح الروح، يحتويهن ويساهم في إعادة إنتاجهن. ولأنهن يعلمن استحالة ذلك، فالأرض هنا لا تنبت هذا النوع من الرجال إلا ما ندر، بل تنبت النوع الذي يجعل أرواحهن تنشأ مضطربة، ونفوسهن مختلة، فإنهن يلجأن إلى منح كل الحب في قلوبهن لمن لا يستحق. يضطررن إلى العيش في كذبة، من أجل بعض العاطفة، وفترات اللقاء في السرير. لا أريد العيش في كذبة. أتفهمني؟

هو: أجل يا ليلى!

أريد رجلا يكملني وأُكمله، يهتم بالتفاصيل الصغيرة، كاحتساء القهوة معي، وتبادل الحديث حول كل شيء، وحول لا شيء. أتفهمني

هو - أجل يا ليلى

- أريد رجلا يجعلني أطير، ويطير معي. تفهمني؟

- أجل يا ليلى.

- وأريد منك أن تصادقه عندما أجده ويجمعنا الله. فأنا لا أريد التفريط في أحدكما.

- حسنا يا ليلى، ولكن اختاريه من طائفتنا، على مذهب الحب لكي نتصادق!

يشرد محمد بتفكيره وترتسم ابتسامة على شفتيه. أخرجته ليلى من شروده بسؤالها: لما تبتسم؟ بماذا تفكر؟

- كنت أحمد الله أنك لست كمعظم النساء، تكتفين بقول يجمعنا الله، ولا تقولين يجمعنا الله بالحلال!

- كلمة حلال يا عزيزي، تعلق على لافتات محلات الجزارة التي تبيع لحما مذبوحا على الطريقة الإسلامية.. وترتفع ضحكتها.

- أريد أن أرقص

تقوم من مكانها، وتتمايل مع الأنغام وتضحك.

يتأملها محمد وينظر إلى نجوم السماء، يسأل الله أن يكون كريما معها، وألا تنتكس أمنياتها. يرجو أن يكون الله قد تلقف أمنيتها، فبعض الأمنيات حسب رأيه، لا تتجاوز سقف الغرفة.

تستمر ليلى في التمايل مع الأنغام، تنحني باتجاهه، تقبله على خده وتهمس:

- شكرا لله على وجودك

مضت الأيام، واليوم محمد وليلى يعيشان معا، وهما زوجان. كان من تبحث عنه. وكانت من يبحث عنها.

أنا قط

أنا قط. ولدت وترعرعت هنا، في هذه المقبرة، اسمي.. لدي ثلاثة أسماء، أسود، ومَعشر وأليف، وعمري عام ونصف. لوني أسود.. لهذا أطلقت على القطط الأخرى والحيوانات التي تعيش هنا اسم أسود. وأما قصة الاسمين الآخَرَيْن فسوف أخبركم بها تباعا.

كما ذكرت سابقا، أنا أعيش في مقبرة، أو بمعنى أصح، كنت أعيش في مقبرة، قبل أن ألتقي رفيقي. بحكم أن لوني أسود، تعودت من الناس عندما تراني أن تُعَوِّذَ بالله وتُبَسْمِل. فمعظم الناس هنا، لديها ذلك التصور أن كل قط أسود من المرجح جدا أنه جني، وخصوصا إذا ما رأوك في مقبرة.

عندما جاء رفيقي إلى المقبرة ذلك اليوم ورآني، لم يُعَوِّذْ ولم يُبَسْمِل. لم أصدق ذلك. قلت لنفسي ربما هو شارد الذهن، فتعمدت أَنْ أسرع الخطى وآتي أمامه وأقف. ومرة أخرى لم يتعوّذ ولم يبسمل، بل ابتسم لي وأكمل طريقه باتجاه القبر الذي جاء لزيارته.

لن تصدقوا فرحتي.. أن يعاملك إنسان على أنك قط ولست مخلوقا آخر غير ذلك، شعور لن يفهمه إلا بعضكم، فما ذنبي إن ولدت بلون أسود، في بلد

يؤمن بأن كل قط أسود جني شرير. أعلم أن معظمكم لن يكترث للفرح الذي غمرني، فمعظمكم لا يتمتع بالإنسانية.

آه صحيح، من قال إن التعاطف مع الآخرين والإحساس بالآخر سمة تخصكم وحدكم معشر الإنس حتى تسموها إنسانية، على العكس نحن أفضل منكم، فنحن لا نقتل للمتعة، ولا نعذب غيرنا، ولا نتملق لمن لديه مال أو سلطة.

أعذروني إن اندفعت في نقدكم، فمعظمكم من الأفضل للجميع لو يموت.

أعود إلى ما حدث ذلك اليوم مع رفيقي. فرحت كثيرا وازداد فضولي. وصل إلى القبر الذي جاء لزيارته، سَلَّمَ عليه، أي على الراقد في القبر بصوت عال، وجلس على صخرة بجانب القبر، وبدء بالحديث معه كأنه شخص حي بجانبه وليس شخصا متوفى. لا أخفي عليكم أنني كنت أسترق السمع، فحتى نحن المخلوقات الأخرى نصاب بالفضول.. صحيح ليس بنفس المقدار الذي يصيبكم، فالفضول هو الذي جعل أباكم آدم وأمكم حواء يقدمان على الأكل من الشجرة المحرمة، ولكننا أيضا نخضع لسلطان الفضول.

أخبر الشخص المتوفى كم يشتاق له، أخبره عن شكل الحياة اليومية، أخبره عما يضايقه، وعما يخطط له. يتحدث ويصمت لبرهة، كأنه يسمع رد الراقد في القبر عليه. يبتسم إذا ما أخبر المتوفى شيئا جيدا، ويضحك إذا ما سرد له

شيئا مضحكا. عرفت من حديثه أنه يحادث أمه، أخبرها عن أخوته وعن الفتيات اللواتي يحبون. يبدو أنها هي التي سألته، لأنه كان صامتا كأنه يستمع، ومن ثم ابتسم وبدأ يتحدث، أخبرها أنهن جميلات وأنها لو كانت هنا لأحبتهن

قرأ بعض القرآن ومن ثم ودعها وغادر.

لا أخفي عليكم أنني أحبته، فقد كان مختلفا، فكل من يأتي هنا يقرأ بعض القرآن ويذهب، ولكنه هو كأنه يجيء لزيارة شخص حي للحديث وقضاء بعض الوقت. أصبحت لا أغادر المقبرة في أوقات الصباح وفي المساء أملا في رأيته مجددا. أصبحت بيننا ألفة. يبتسم عندما يراني، وقد قررت ذات ليلة في المرة القادمة عندما يأتي سأذهب إليه عند قبر أمه.

بينما هو جالس سِرت نحوه على مهل. ابتسم عندما رآني، أكملت مسيري حتى وصلت عنده، أخذ يمسح على رأسي وقال: أنت قط أليف.

جلست بجانبه وعاد يتحدث مع أمه. ودعها، ودعني وغادر.

هو من أسماني أليف، كلما رآني ابتهج وخاطبني باسم أليف. يحضر معه علبة تونة كلما جاء. ومن ثم أصبح يحضر علبتين، فعلبة واحدة لم تكن تكفي. فأحيانا يكون أحد القطط الأخرى قريبا، يشم رائحة التونة ويأتي طلبا للطعام

أصبح الوقت الذي أقضيه برفقته الأحب إلي، وأصبحت أحزن عندما يغادر. ذات مرة كان حزينا، لم يكن يتحدث كثيرا، كنت بجانبه فقال:

وجدت في القبور دفئا ** أكثر مما فيكم معشر الأحياء.

لم أفهم معنى كلمة معشر، فذهبت مسرعا إلى البوم الحكيم الذي كان يعيش بشجرة عالية، سألته عن معنى كلمة معشر، فأخبرني أنها تعني مجموع. أحببت الكلمة وأطلقت على نفسي اسم معشر، فأنا لست قطا فردا، أنا مجموع من الأفراد.

عندما نهض ليغادر، ذهبت معه حتى وصل إلى سيارته. فتح الباب فقفزت وجلست معه، ابتسم وقال لي: هل تريد الذهاب معي؟ مؤت بمعنى أجل، ويبدو أنه فهمني، أو هكذا خُيّل إلي، ومنذ ذلك اليوم وأنا أعيش معه. مع رفيقي.

هذه حكايتي أنا القط. ولدت وترعرعت في مقبرة، الحيوانات التي في المقبرة أسموني أسود، لأن لوني أسود، رفيقي أسماني أليف، وأنا أطلقت على نفسي اسم معشر، وما زلت أرى أننا نحن الحيوانات أفضل من كثير منكم معشر البشر!

حذاء جديد

يمر الصبي من أمام محل الأحذية، يتوقف طويلا أمام هذا الحذاء. الحذاء بني وأشرطته كذلك، كلما مر من أمام المحل يتوقف طويلا، ينظر إلى هذا الحذاء، وكل مرة يتمنى لو كان معه ثمنه ليدخل المحل ويشتريه، وكل مرة يحني رأسه منكسرا إلى الأرض، يكمل طريقه حاملا معه خيبته، يعود إلى المنزل.

- أمي أحتاج حذاء جديدا، لقد أصبح حذائي باليا ولا يصلح للمشي.

- خذه للإسكافي.

- لقد أخبرني آخر مرة أنه لم يعد بالإمكان إصلاحه.

تنحني الأم لتقبل الصبي:

- حسنا يا حبيبي، المدة القادمة سأشتري لك حذاء جديدا.

يبتسم الصبي لأمه رغم معرفته بأنها لن تشتري له حذاء جديدا، فهي لا تملك إلا ثمن طعامهم الذي لا يتغير إلا نادرا، حساء الخضار. ومنذ ما يتجاوز الستة أشهر وهي تعده نفس الوعد.

بعد تناول طعام العشاء يقوم الصبي لينام، يمتد على فراشه يتخيل حذائه الجديد، البني بأشرطته البنية، ذاهبا إلى المدرسة وكل زملائه في الصف مأخوذين بحذائه. وتقوم المعلمة باختياره ليقوم بدور البطولة في المسرحية التي سيؤديها الفصل، فهو يمتلك الموهبة والحذاء المناسب. يغلبه النعاس وابتسامته تعلو شفتيه من نشوة الحلم.



الصبي يقف أمام المحل، ينظر إلى الحذاء. تخرج من المحل صبية في بداية العشرينات، شعرها أسود وطويل وعيناها بنيتان وتضع على كتفها آلة ساكسفون، تخاطب الصبي:

- هل أعجبك هذا الحذاء؟

- أجل.

- لدي حذاء أجمل منه.

- ولكنني لا أملك مالا.

- لا حاجة للمال. تعالى معي.

ويسير كلامهما حتى يصلان إلى حديقة صغيرة في نهاية الشارع، تخرج الفتاة من جيبها بعض البذور وتحفر حفرة صغيرة، وتضع البذور في كف الصبي:

- ضعها في الحفرة وتمنى الحذاء الذي تريد!

يضع الصبي البذور في الحفرة، ويتمنى نفس الحذاء البني بأشرطته البنية. ما هي إلا لحظات حتى تحولت تلك البذور إلى شجرة، وعلى أغصانها أحذية من كل الألوان. لم يصدق الصبي ما تراه عيناه، أخذ يقفز في مكانه فرحا، ووقع نظره على الحذاء البني، حذائه. أخذ الحذاء وانتعله صارخا تملئه البهجة:

- لا أصدق.. حذاء جديد

- هل تريد الطيران؟

- هل تقصدين أن هذا الحذاء يطير؟

- أجل.. عليك أن تنقر الأرض نقرتين، ومن ثم تقفز عاليا فتطير!

ينقر الصبي الأرض نقرتين ويقفز عاليا، فيجد نفسه يطير حقا. يفرد ذراعيه مقلدا الطيور، يطير تارة للأعلى، وتارة يطير فوق مستوى الأرض بمترين، لا يصدق كل ما يحدث له، وكل ما يقوم به. يتوقف في الجو مخاطبا الفتاة:

- انتعلي حذاء وطيري معي.

- لا داعي لذلك لدي أجنحة.

وتخلع معطفها مطلقة جناحيها في الهواء. يسألها الصبي:

- هل أنت ملاك؟

- أجل، وقد أرسلتني والدتك!

يمسك الاثنان بيدي بعضهما البعض، ويرتفعان في الجو يحلقان عاليا. في الصباح يستيقظ الصبي، مدركا أنه كان يحلم ولكن شعورا مختلفا في قدميه يحس به، ينظر إليهما، فيجد أنه ينتعل حذائه الذي لطالما تمناه، حذائه البني بأشرطته البنية!

قبلة

بخطوات مثقلة صعد الدرجات الثلاث للمقهى، فلم ينم جيدا الليلة الماضية. دخل المقهى فوجدها مستغرقة في التفكير للدرجة التي لم تجعلها تلاحظ وصوله إلى الطاولة حيث تجلس:

- بماذا تفكرين

رفعت رأسها فوجدته قد وصل.. لثم يدها بقبلة وجلس بجانبها، تسأله:

- كيف أنت

- هه!! بضحكة سخرية تعبر عما بداخله من إحباط نتيجة الوضع العام للبلد.

- حالي.. حال مواطن يعيش في بلد اسمه العظمى، ومن أسماها غير موجود، عدد المصحات والمشافي الخاصة تجاوز عدد المقاهي في طرابلس، كم أمقتهم وأمقت ما يفعلون. تبا لتجارة الأمراض.

- ولكنها خدمة تقدم علاجا أفضل. وهذا أفضل من السفر والعلاج في الخارج، فهكذا تبقى الأموال هنا ولا تخرج، أليس هذا ما يقوله علم الاقتصاد.

- هل لو ذهب شخص لا يملك مالا وبحاجة للعلاج، هل يعالجونه؟

- لا

- إذاً هي تجارة الأمراض، التربح من وراء مرض ومعاناة أحدهم. أولم يقل ذلك الرجل، الأمصال لا تباع، والأدوية لا تباع. فمن باب أولى أن يكون العلاج بالمجان والدواء كذلك.. سأذهب لأحضر قهوة لكلينا.

عادت النظرة الحائرة إلى عينيها والشرود. أخذ يتأملها من بعيد، بعينيها الحائرتين وأنفها المستقيم، وشفتيها اللتان كان يحج إليهما كلما أحس بخمود روحه. عادت به الذكريات إلى أول مرة تجرأ أن يطلب منها قبلة: دعي روحي تنفذ إلى روحك من خلال شفتيك.

يومها كاد قلباهما أن يتوقفا عن الخفقان، فأن تُقبِّل شخصا ترى الحياة متجسدة فيه، شعور لا يمكن وصفه. يومها توقف الزمن والمكان والمعايير والقيم، لثوانٍ زال كل شيء، ولم تبق إلا الروح والحواس. أخرجه صانع القهوة من شروده:

- تفضل قهوتك.

- شكرا لك.

حاملا القهوة، عاد وجلس بجانبها، لم يكن يحب الجلوس مقابلا لها، كان دائم الجلوس بجانب من يحب:

- قولي لي ما الذي يشغل تفكيرك؟

- أفكر.. هل للموت عقل يفكر به.. وهل الموت دنيء!

- وما الذي دفعكِ لهذا التفكير؟

- أَتَذكُرُ تلك القطة الصغيرة التي أخبرتك عنها، التي أنجبتها أمها فوق سطح منزلنا.

- أجل تلك القطة التي مَرِضت وأخَذْتِها للطبيب البيطري، وأخبرك أن تُحضريها في الغد إن هي عاشت للمراجعة.. ما بها؟

- الموت لم يمهلها حتى الموعد الثاني! في البداية لم تعد تقوى على الوقوف والمشي، ومن ثم لم تعد تقوى حتى على الحركة. لماذا الموت تلذذ بتعذيبها؟ لماذا جعلها تعاني الألم لأيام؟ ما الفائدة من عذابها؟ فلو كانت إنسانا لقلنا إن عذابها ابتلاء، ولكنها قطة صغيرة، لا تُبتلى ولا تحاسب؟!

- يبدو أنها لم تكن تتعذب وحدها، فكلاكما كان يتعذب.

- أجل يا حبيبي.. أتعرف ما معنى أن يكون بجانبك كائن صغير يتعذب. ومع كم العذاب الذي يعانيه، كلما نظرت إليه لتفقد حالته، يبادلك نظرة ملؤها حب

وشكر، وكلما حاولت إجباره على الأكل، تسمع في أنينها رجاء على التوقف، فلم تعد هناك فائدة. لا أنينها ولا عيناها يفارقاني. ما الفائدة من أن تتعذب؟ لا أستطيع التوقف عن التفكير.

- أتذكرين عندما تناقشنا مرة حول السينما، وما هي أفضل الأفلام؟

- أجل.

- حسنا، تأملي معي الحياة. تخيلي أن المرض والعذاب والأوبئة من نصيب المخلوقات التي تحاسب فقط، الإنس والجن حسب النص القرآني، وباقي المخلوقات لا تمرض ولا تجوع، لا تتعذب ولا تتقاتل، هل كانت الحياة ستكون بهذا العمق وبهذه الغرابة؟

- بالطبع لا.

- أرأيتِ.. الحياة أعظم فيلم ملحمي. خلقت الحياة بهذا الشكل لتصل بمشاعر الإنسان إلى حدودها القصوى. إلى النقطة النهائية لمن يمتلك قلبا مرهفا وبصيرة.

تتأمله للحظات ومن ثم تتكلم:

- أحبك

هو: لولا السينما والأغاني وأنت، لأصبحت مدمنا على مضادات الاكتئاب!

سحر قرطاج

بينما هو يسير حاملا مظلة في يده. استوقفه لحن كان يأتي من نافذة. طالع النافذة، فلم يجد عندها أحدا. تأمل السماء فاحصا، جلس وفتح مظلته. ولكن لا سحب في السماء، ولا إشارة لهطول المطر.

مرت خمس دقائق وهو على حاله، جالسا في مكانه فاتحا مظلته، ناظرا إلى الأرض يستمع إلى اللحن. مع آخر نوتة معلنة عن انتهاء اللحن، رفع نظره باتجاه السماء. وجد القمر مكتملا وقطعة منه تطل من النافذة على هيئة فتاة. لَوَّح لها بيده، وأشار لها أن تنزل، وبدأ المطر في الهطول.

ببولينا

قصة ببولينا، مستوحاة من رواية زوربا اليوناني

كان الجو باردا، ورذاذ المطر الخفيف يداعب النافذة، ويحرك شهوته للمشي. فكر يحيى في أنه من السيء إضاعة مثل هذا الجو في البقاء بالمنزل. ارتدى معطفه ولف شاله حول عنقه وخرج مطلقا العنان لروحه وقلبه، لعل المشي يريحهما أو يتعبهما فيهدئان.

أثناء المشي كانت الأفكار تمر على عقله دون هدي، ودونما توجيه منه. فكرة واحدة كانت تلح وتتكرر كلما رأى شيئا جميلا يستفز روحه، كم الناس في أرضنا بؤساء ومشتتون، يمرون على الحياة ولا يتعلمون كيفية عيشها.

لماذا المقاهي هناك، ليست كالمقاهي هنا. ولماذا لا يزرع الناس الأزهار هناك، كما يزرعها الناس هنا. متى سيتعلم الناس هناك، أَن الحرية كنز، وأن السعادة في التواجد مع من تحب، وتبادل الحديث معهم.

مرت ساعة وهو يمشي. وصل إلى ساحة صغيرة بها أكثر من مقهى. المقاهي جميلة، انعكاس ضوء المصابيح على المياه المتجمعة على هيئة برك صغيرة جميل، حبات المطر التي تكلل الأزهار جميلة، والقمر المكتمل الذي آثر

الحضور ليكمل المشهد جميل. كان كل شيء يذكر بها. جلس على أحد الكراسي وأخذ يقلب نظره في المكان.

- لا يطالع السماء، إلا حالم بما يتمنى أو عاشق!

التفت يحيى ناحية الصوت. فوجد رجلا في متوسط العقد السابع من عمره. كانت خدوده متوردة، تعلو شفتيه ابتسامة ويبدو على هيئته أنه أكثر من احتساء الخمر حتى وصل حد الانتشاء. وقبل أن يجيب يحيى. استطرد الرجل:

- لا تجبني، أنت عاشق. إنني أرى طيفها في عينيك.

وبدأ الرجل في غناء أغاني الحب، والدوران حول نفسه بخطوات راقصة. كان العجوز يتحرك بألق، يدور حول نفسه فاتحا ذراعيه يغني، وكلما ازداد زهوه، يرفع نظره إلى السماء، ويعلو صوته أكثر، ومن ثم يلتفت باتجاه يحيى وهو يبتسم:

- قم وأرقص معي.

- لا أعرف كيف أرقص.

- هراء.

ويتوجه العجوز إلى يحيى ليأخذه من يده ويدفعه للرقص. ما إن وضع يده على يد يحيى حتى توقف، صمت قليلا ومن ثم قال:

- يدان دافئتان، وقدمان معقودتان، الحب يملئ قلبك، ولكنه لم يعلمك الطيران بعد؟

مجددا لم يجد يحيى ما يقوله. فكر في أن من أمامه شخص نافذ البصيرة، يرى ما في القلوب، أو مجرد سكير منتشي، ولكنه أحبه في كلتا الحالتين. أخرج العجوز من جيبه صورة قديمة:

- هذه ببولينا، بوب ولينتي. أنظر إلى جمال شكلها وجسدها. صحيح أنها الآن في العقد السابع من عمرها، ولكن حتى الآن مازال جسدها يقتلني، وضحك ضحكة خبث.

لم تكن ملفتة للنظر، ولكنها في عينيه كانت الأجمل. نظر العجوز باتجاه الأفق في صمت، كأنه يرى ذكرى أمامه، وعاد مجددا يسترسل في حديثه:

- عندما نجد الحب، نستميت لكيلا نتركه يذهب. وكلما كان الحب أكبر، كان الاستمات أكثر. لا أعلم إن كان الله موجود أم لا.. ولكنني عندما وجدت بوب ولينتي، تضرعت لكل القديسين وإلى الله، أن يزرعوا حبي في قلبها، حتى أنني أشعلت شمعة أمام أيقونة الأم القديسة. فليتقدس اسمها. وصنع إشارة الصليب على صدره.

- عندما أعود إلى البيت، وأجد بوب ولينتي، لا أندم أبدا على ما فعلتُه. لابد أن الله يفهم. نعم إن الله يفهم، لذلك خلق النساء، لا شيء يجعلنا ننسى بؤس الحياة، أو على الأقل نقبله، سوى النساء.

وعاد مجددا يشير إلى الصورة:

- أنظر إلى جمال بوب ولينتي، وجمال جسدها.

وعلت مجددا ضحكته التي يشوبها الخبث:

- لا تخف، صدقني يا بني، لا أحد يجد الحب ويتركه، الآن دعنا نطير بالرقص، وغدا ستطير بالحب.

حنين

تحسس نبضه، ليتأكد إن كان لا يزال حيا.

ضوء النجوم المطل من النافذة، وبرودة الهواء تقول إنه لا يزال حيا. ولكن لماذا لا يشعر بشيء، لماذا لا يحس بالهواء الذي يملئ رئتيه ويخرج، لماذا لا يحس بهذا النسيم البارد.

السماء سماء طرابلس وكذلك النجوم، استغرق في التفكير، ربما هو يحلم، أو ربما خرج من البيت وكان متجها إلى مكان ما، ووقع في الطريق وأغمي عليه، وتخدرت حواسه. أخرجه من تفكيره صوت رجل كان يحادث نفسه بصوت عالٍ، يبدو عليه أنه في العقد السادس من عمره:

- إيه دنيا.. اليوم أربعطاش في الشهر العربي والقمر مهناش؟

- من وين بيطلع القمر وأنت مهناش.

شده حديث الرجل، رفع ظهره ليجلس، وسأل الرجل الستيني:

- يا عم، عمن تتحدث؟

نظر إليه الرجل:

- من غيره يا ولدي، الله يرحمه ويسامحه ويسامحنا.

- من.. من يا عم

لم يلتفت الرجل مجددا ولم يرد، كأنه عاد يطوف في الملكوت الخاص به. وعاد يحادث نفسه بصوت عال:

- الله يرحم عظامك عظمة عظمة، يلي في عهدك كل كلب في فمه عظمة!

لم يدرك عمن يتحدث الرجل الستِّيني، ولكنه أدرك أنه ممدد على سرير بإحدى المستشفيات.

اكتئاب

في المقهى، يجلس الاثنان يتبادلان الحديث، بينما صديقهم يجلس بعيدا، متجهما جاحظ العينين. يتكلم أحدهما:

- ما مشكلته؟ بالأمس كان يطير فرحا، بالكاد قدماه تلمس الأرض. واليوم منكفئ على نفسه كأنه شبح!

- مشكلته أنه دائما ينسى.

- ما الذي ينساه.

- ينسى طبيعة البشر هنا.

- ما الذي حدث له؟

- الأنا!

- ما الذي تقصده؟

- بالأمس. عاد إلى البيت كما تراه على هذا الحال، لم ينم ولم يتكلم إلا نادرا، حتى الابتسام، كان يحتاج منه أن يستدعي كل طاقة الكون لكي تنصاع شفتاه، عندما سألته ما به لم يجبني، أدركت أن قلبه كان ينزف

- ولم تحاول أن تسأله مجددا؟

- لا.. وجدت ورقة كان قد كتبها وتركها على الطاولة.

- ما الذي كتبه؟

- الأنا!

كل شيء يتمحور حول الأنا. عندما نكون جيدين، نكون جيدين إرضاء للأنا. عندما نقوم بعملٍ خَيِّر نقوم به لكي نشعر بالسعادة، لكي تسعد الأنا. حتى عندما نحب، تتدخل الأنا. نحب لكي نتلقى حبا بالمقابل.

المشكلة.. هي عندما نحب ذلك الحب الكبير. ذلك الحب الذي يجعل الأنا تختفي، تتحول من أنا.. إلى أنا وهو. حينها.. أن لم يتحد أنا وهو. تصبح الأنا، نصف أنا!

الحياة اليومية

المكان، عاصمة ما، بينما يتمشى من غير وجهة محددة، مر من أمام دار للإيواء، دار لإيواء النساء اللواتي لا مسكن لهن، كان باب الدار مفتوحا، ألقى نظرة باتجاه الدار.

لَفَتَت نظره امرأة يبدو من ملامحها أنها في نهاية العقد الثالث من عمرها، ما شده فيها نظرة القوة التي كانت تملأ عينيها رغم الإنهاك والتعب اللذان كانا واضحان كثيرا لمن يراها.



اليوم الثاني كان كالذي سبقه، خرج يتمشى بهدف اكتشاف المدينة ومعرفة شوارعها أكثر، كانت المدينة كئيبة، لون أبنيتها غامق وباهت، معظم أحياءها متواضعة، باستثناء حي واحد مر من خلاله صدفة حينما كان يستقل سيارة أجرة، أدرك أن قانطوا الحي مسؤولو الحكومة، والتجار واللصوص الكبار. المنازل ضخمة، والشوارع بعرض 20 متر، ومَلئَ برجال الأمن. كانت المدينة كما الوصف الذي سمعه عنها، لا لون لها، ولا طعم ولا رائحة.

بينما هو يسير سمع امرأتان تتحدثان خلفه، فالتفت باتجاههما. كانت نفس المرأة التي لفتت نظره في دار الإيواء.. نفس الكنزة الصوفية العنبرية، نفس التنورة السوداء، نفس تسريحة الشعر، نفس الإنهاك والتعب، ونفس نظرة القوة والعينان الجميلتان. كانت المرأة صاحبة النظرة القوية تحادث المرأة الأخرى بصوت مسموع لمن يكون قريبا منها:

- لقد قالوا لي اليوم أنه لم يعد هنالك ما يمكن أن يقدموه لي كعلاج، وأنه يجب أن أغادر دار الإيواء لأنني لست مواطنة من أهل هذا البلد، قالوا إن الميزانية لم تعد تحتمل مصاريف إضافية.

ومرت المرأتان من أمامه مكملتان سيرهما. علم من لهجتها أنها من بلد آخر، بلدٌ ممن يطلق عليها بلد شقيق، شعر ببعض الحزن، وأخذه تفكيره لاإراديا لما سيكون عليه مصير المرأة إن هي خرجت من دار الإيواء. ولكنه لم يسمح للحزن أن يسيطر عليه، ففي هذا العالم ملايين الحالات المشابهة، التي لو حزن الإنسان على كُلٍ منها، لما عاش أكثر من ساعة، ولقتله الحزن.

مر أسبوعان على إقامته بهذه المدينة، أصبح يعرفها إلى حد ما، وتعرَّفَ كذلك على صديق يقول عن نفسه عدمي، يؤمن بلا جدوى الحياة، والعدم. لم يكن عدميا، مع أنه يحب أن يصف نفسه بذلك. كان مليئا بالشك والبحث الدائم

عن الأسئلة الكبيرة، فيه تناقض غريب بين حب الحياة وتقديسها، والبحث عن المتعة خلالها، والنظرة السوداوية والميل للاستخفاف بكل شيء. يعيش في شقة صغيرة بالقرب من عائلته، أمام المطعم القريب من دار الإيواء، مكان التقاءهما الدائم.

وقف الاثنان يتبادلان أطراف الحديث ريثما ينهي العدمي تدخين سيجارته. بادر العدمي بالحديث:

- هل تعلم ما أدركته بالأمس؟

- ماذا؟

- أن الله خلق الحياة على أُسس، وأن أهم تلك الأسس هو الصراع. صراع الإنسان مع النفس ورغباتها، صراع الأقوام والشعوب ضد بعضها حتى الحيوانات من جنس واحد تتصارع من أجل الطعام أو من أجل التزاوج.

- هل أدركت ذلك قبل أن تدخن الحشيش أم بعده؟

- بالتأكيد بعده! ويضحك الاثنان

جاءت ممرضة تحمل ملفا في يدها باتجاه رجل كان يَهِمُّ بدخول المطعم، خاطبته:

- سيدي الطبيب، هذا ملف المريضة، نحتاج توقيعك لنكمل لها العلاج.

وَقَّعَ الطبيب، أخذت الملف وانطلقت باتجاه دار الإيواء. علم ياسين من الصورة الموضوعة على الأوراق أن المريضة المعنية، المرأة صاحبة النظرة القوية. شعر بالبهجة. فمن المخزي أن تخرج امرأة من دار للإيواء لأنها ليست مواطنة من أهل البلد.

فرح

18-3-2015

كل ما في الأمر، أننا كنا نعيش في بيت قديم. ليس مهترئا، ولكنه قديم وتنقصه العديد من الأشياء. حلمنا بتحويل هذا المنزل، إلى منزل جميل. به حديقة مليئة بالورود وألعاب للأطفال.

كنا حالمين وبسطاء، لم تكن لدينا لا استراتيجية، ولا إلمام بتفاصيل كيفية تحويل هذا الحلم إلى حقيقة. فكما قلت نحن حالمون وبسطاء، ولا علم لنا بمثل هذه الأمور التي تحتاج إلى أشخاص يفوقوننا ذكاء وبصيرة. كل ما كنا نعرفه وندركه، هو أننا نملك المال، والمال هو الوسيلة لتحويل البيت إلى منزل جميل.

جاء قادتنا من خبراء استراتيجيين وقضاة وقالوا لنا عن كيفية تحقيق الحلم. وزادوا في الوصف والتزيين، حتى جعلونا نرى المنزل مكتملا أمام أعيننا، وبالتأكيد شاركهم في الشرح والتزيين علمائنا في الخارج، من غادرونا منذ ما يفوق الثلاثة عقود، حتى نسيناهم ونسونا، لكنهم تذكرونا عندما بدأنا نحلم

كثيرون زاغتهم هذه الرؤيا وهذا التصور.

فكلمات قادتنا وقدرتهم على جعل الأمور تبدو كأنها حقيقة، كانت أكبر من أن يتخيلها أمثالنا من سذج حالمين.

واليوم لازلنا نعيش في نفس البيت.. أصبحت جدرانه مهترئة أكثر مما كانت. سقط معظم سقفه. حتى أن كثيرين منا، يغرقون تحت المطر، وتفتك بهم سيوف الصقيع عندما يحل الشتاء، وتذوب أدمغتهم من حر الشمس، وتتشقق جلودهم من فعل الهواء في كلا الفصلين. صار البيت أضيق من أن يتسع للكل، وخبرائنا الاستراتيجيون، وقضاتنا، وعلمائنا الذين كانوا بالخارج، من زينوا لنا الحلم، يعيشون اليوم في الخارج. في بيت أجمل من بيتنا.

لا تهتموا للكلام الذي كان يقوله صديقي، فهو يميل دائما إلى النحيب. حالم وساذج. ما المشكلة في أن يموت الألاف، ومعظمهم لا يعرف سبب موته.. ما المشكلة في أن يُذَل الناس من أجل لقمة العيش، أن يبكي أرباب الأسر لعدم قدرتهم على توفير حاجيات أطفالهم.. ما المشكلة في أن يغادر الألاف من الأطفال فصول الدراسة.. ما المشكلة في أن يُتَاجَرَ بنا، نحن من لا حول لنا ولا قوة، من نطلق على أنفسنا، كادحون. أليست هذه هي الحياة؟

لا تهتموا لما أقوله. فليذهب كل شيء للجحيم.. وليعش الإنسان، أينما كان



أنا الذي كنت حدثتكم أول الأمر، الحالم الساذج كما يسميني صديقي. لا أريدكم أن تلوموه، مع أني أعلم أن معظمكم لم ينزعج مما قاله، بل أن معظمكم تفهمه.

أنا وهو، أي زياد نعرف بعضنا منذ سنوات طويلة. كان أكثرنا ميلا للتفاؤل. ما يزال كما هو بنفس خلاصه الحميدة، رغم أن الزمن أنهكه، وجعله يميل أكثر للواقع. ليس لديه أخوة أو أخوات، وحيد والديه. توفي كلاهما في حادث سيارة عندما كان يبلغ السابعة عشر. تخطى هذه الأزمة، أنفق ما تركه له والداه بحكمة. كانا ميسوري الحال وتركا له ما يضمن له حياة مستقرة.

دخلنا الكلية سوية. كانت روحه متقدة، يلقي المحاضرات يوميا عن العمل، وأهمية العمل الذي ينتظرنا بعد التخرج. وبقيام الثورة في 2011، زادت أحلامه اتساعا. كان في السنة الأخيرة من دراسته، وتجمعه علاقة حب مع فتاة تتجاوز كونها فتاة بالنسبة أليه، كانت بالنسبة له هي الحياة.

اسمها حواء على اسم أول امرأة في هذا الكون، ولها من اسمها حظ كبير، عفوية وفريدة، لم تكن تطيق لا التكلف ولا التصنع. ربما لهذا لم تكن لديها صداقات حقيقية مع أي فتاة، فمعظم الفتيات هنا يملن للتكلف والتصنع، وغالبا بدون وعي منهن.

كان حينها مقبلا على الحياة ممتنا. في الثانية والعشرين، درس التخصص الذي يحب، لديه أصدقاء ورفقة رائعون، وتوأم روح.

لم تمضي مدة طويلة حتى بدأ يخبو.. كان أولنا إدراكا، أن الحلم مضى. وما هو قادم سيء. لكن إصراره بقي كما هو، وقيمة العمل بقيت الأهم بالنسبة إليه، ازدادت علاقته قربا من حواء، لولاها لانطفأ البريق في عينيه. كان كل شيء يسير بهما نحو بيت جميل يجمعهما، وحياة أجمل.

18-12-2012

ليلتها تلقيتُ مكالمة منه، كان قلقا وطلب مني القدوم إلى منزله. عندما وصلت، أخبرني أن حواء كانت تحادثه قبل أن يتصل بي، وأخبرته أن والدها قد أخبرها أن قائد ميليشيا يريد الزواج بها، وأنه موافق.. وأنها أخبرت والدتها أنها تحب شخصا آخر وتريد العيش معه.

كان قلقا من أن طمع والدها أكبر من أن يتفهم ابنته، أو أن يكترث لها.

في اليوم التالي، اتصل بعمه وأخبره أنه يريد منه الذهاب معه لخطبة فتاة. رحب عمه وأخبره أن يأخذ موعدا لذهابهما. حُدد الموعد بإلحاح من حواء ووالدتها، فذهبنا عمه، هو، وأنا.

استقبلنا والد حواء بتململ، لم نتجاوز دقائق حتى أخبرنا أنه لا يملك شيئا شخصيا ولا سببا يجعله يرفض زواج ابنته من زياد، ولكنه قرر أن تتزوج من اللص، الثائر الكبير.

حاول عم زياد بكل الطرق أن يقنعه برغبة ابنته وابن أخيه. ولكن عبثا. نصحه والدها أن ينسى ويكمل حياته، فما هي إلا مسألة وقت، حتى تصبح ابنته زوجة لرجل آخر.

ليلتها لم يتحدث زياد بكلمة، كان كشبح، لم تحدث حفلة خطبة، إذ أن حواء رفضت وانتحبت، ولكن تم تحديد موعد الزفاف بعد شهرين، في الأسبوع الأخير من شهر النوار فبراير رغما عنها.

توقف الزمن بالنسبة لزياد. كان ينام أحيانا لثمانية عشر ساعة، وأحيانا تمر أيام دونما أن ينام.

عندما التقى زياد وحواء بعدها، طلبت منه أن يغادرا سويا:

- أرجوك، دعنا نغادر هذا الجحيم، ثلاث ساعات ونكون على الحدود التونسية، وبعدها نذهب حيث نشاء. أخبرت أمي وقد وافقت مكرهة، لكنها موافقة.

- ولكنني غير موافق. أنت تعلمين أني مستعد لفعل أي شيء، أي شيء لنعيش معا. ولكني لا أريد لك أن تعيشي حياة الهاربة. ويلوك الناس بأفواههم كلما تذكروك.

- ولكني لا أهتم.

- أنا أهتم.

زفرت الهواء وقالت:

- أنت تحكم على بالموت.

لم يرد بكلمة، صفعته وهي تبكي. ضمته لدقائق. ثم غادرت. كان مليئا بشعور أن هذا الزواج لن يتم.. لم يكن يعرف سبب ذلك، لكن هذا الشعور كان كيقين سكنه.

في ليلة السابع عشر من شهر النوار فبراير، حواء تبكي فوق سطح منزلهم، يملئها السخط على كل شيء، وتقتل روحها شيئا فشيئا، لكيلا تشعر بشيء عند وقوع الكارثة.

وبينما يحتفل المحتفلون، وينتقد المنتقدون، والرصاص ينطلق نحو السماء، أصابت رأسها رصاصة، جعلت ثقل التفكير فما هو آت يتوقف، وغرقت في بركة من الدماء، لا أحد يشاهدها، سوى الله، القمر، ونجوم السماء.

لم تمت.. حمدا لله. ولكنها دخلت في غيبوبة

7-9-2015

مضى عامان ونصف والحال كما هو عليه، عادت بعض الحياة إلى قلب زياد. يذهب كل يوم إلى المستشفى، وعندما لا يكون أحد من أقربائها معها، يدخل ويجلس بجانبها لساعات.

في العام الماضي تزوجت أنا، وكانت تلك المرة الوحيدة التي ابتسم فيها زياد من قلبه وفرح. وقبل مدة قريبة، شاهد زياد خبرا في الجريدة وصورة لفتاة صغيرة عمرها عام، عثر عليها وحيدة في الشارع ولم يعثر على والديها ولم يطالب بها أحد.

اتصل بي زياد تلك الليلة وجاء لزيارتي، أخبرني عن الفتاة الصغيرة، وأنه لو كان متزوجا هو وحواء لكانت هذه الفتاة الصغيرة ابنتهما الآن. طلب مني أنا وزوجتي أن نتبناها.. فالقانون لا يسمح بأن يتبناها هو، لأنه يعيش بمفرده

وغير متزوج. وافقت زوجتي برحابة صدر، على الرغم من أن مولودنا الأول لم يبلغ شهرا بعد.. ولكنها ارتأت أن ذلك سيساعد زياد على التصالح مع الحياة.

باع زياد منزله، وبنى منزلا فوقنا، وانتقل للعيش فيه، أتممنا اجراءات التبني، وأختار لها زياد اسم فرح.

كانت زوجتي تهتم بكل شيء يخصها من طعام ورعاية وتغيير للحفاظات، ويساعدها زياد كلما كان متفرغا، وعندما يجيء موعد النوم، تنام مع زياد في بيته

4-7-2019

اليوم صار عمر فرح خمس سنوات، وصار لي طفلان.

زياد متزوج الآن من حواء، وقد أنجبا توأما.. ولا يزالان يعيشان فوقنا. وفرح تناديني أنا وزياد بأبي، وتنادي زوجتي وحواء بأمي. تتدلل على الجميع، وتُفاخر دائما بعدد والديها المضاعف، وأنها الأخت الكبرى لجميع إخوتها.

مطر

جَالِسٌ أمام النافذة، ينظر إلى الخارج، ومستغرق في التفكير. يومٌ آخرُ ممطرْ.. يظل للمطر سحره الخاص. كثر يحبون المطر.. المشتاقون والفلاحون. لا أعلم لماذا يتم دائما الربط بين المطر والشوق لمن نحب.. هل لأنه يحبس شريحة واسعة من الناس في بيوتهم، مما يضطرهم لقضاء الوقت مع بعضهم في جو من الحميمية وتبادل الحديث والذكريات، أم لأنه يحرك شهوة المشي تحته برفقة شخص آخر؛ لا أعلم!

ولكن صدقا.. المطر يغسل القلب من أحزانه، يجعلنا نتفاءل بالغد، ويحرك شوقنا للحلم ولمن نحب. وأنا الآن أشاهد المطر.. أشتاق لك.. أشتاق للبعيدين.. وللذين غادرونا.

لم يحدث شيء يذكر الأيام الماضية.. كأنه نفس اليوم يتكرر، السماء يكسوها اللون الرمادي، ولا أعرف لماذا أتضايق من لون السماء كلما كانت رمادية. لا أذكر تحديدا، كم مرة رأيت المطر ينهمر والشمس مشرقة، ربما مرة أو اثنتين.. فهذا شيء نادر الحدوث في سماء طرابلس. ولكن ما أذكره، هو شدة ابتهاجي، أن يجتمع المطر ونور الشمس شيء مميز حقا.. ولو كان الأمر بيدي، لزدت

عدد مرات حدوث ذلك، ولكن هذا كأشياء أخرى، ليس بأيدينا. هذا ما هو عليه الحال الآن، المطر ينهمر وأنا أشاهده، وأتجنب النظر إلى السماء الرمادية.. أشتاق لك، أشتاق للبعيدين، وللذين غادرونا

الناس هنا يحبون المطر، ويحبون رمزيته للخير.. رغم أنهم يتضايقون من البلل الذي يصيب أحذيتهم الرخيصة، والوحل الذي غالبا ما يلطخ ملابسهم، والتفافهم من شارع إلى لآخر، لأن المطر يغلقه. يظل حبهم للمطر كما هو، ولا يسمحون لأي شيء من هذا، بأن يُغيِّر من هذا الحب.

- تفضل قهوتك.

يلتفت ناحية الصوت.. الممرضة فاطمة.

- شكرا يا فاطمة.

- العفو.

يدخل ممرض آخر وهو يصرخ محادثا الطبيب:

- عليك أن تأتي بسرعة!

ينهض الطبيب بسرعة للحاق بالممرض الذي خرج مسرعا.

وجد على السرير في حجرة الإسعاف، شابا في السابعة والعشرين، مغماً عليه، كل جسمه جروح، وممرضة تقوم بقص ملابسه بمقص لكي يتم إسعاف الجروح. ذهل لحجم جروحه!

بعد إسعافه للمصاب والقيام بما تقتضي الحالة، خرج من الغرفة.. هرع إليه رجلان يسألان عن الشاب المصاب:

- كيف هو الآن؟

- بخير.

- هل ستشفى جراحه؟

- أجل. ولكن ستبقى آثارها.. فالجروح عميقة.

ما سبب هذه الجروح؟ حقيقة لم أعرف ما يمكن أن يسبب مثل هذه الإصابة. ما الذي جعل ملابسه تتمزق وهي على جسده؟ والجراح منتشرة في معظم مناطق الجسد!

- آه يا دكتور!

قالها أحد الرجلين. الأكبر سنا.. كانت هيئته وملامحه تدل على أنه في نهاية العقد الخامس من عمره:

- نحن من تاورغاء، ونعيش في ذلك المخيم القريب من هنا.

- ذلك المخيم، سحقا للأيام.. قالها الطبيب بينه وبين نفسه.

يكمل الرجل حديثه:

- بالأمس جاءت إحدى الميليشيات وقامت بأخذه.. بعد أن حققوا معه ولم يجدوا أنه متورط في أي شيء، قاموا بربطه بحبل في السيارة، وجره على ساحة معسكرهم والسيارة تجري.. ومن ثم رموه في فناء المخيم وهو ينزف.

لم يصدق الطبيب ما يسمعه.. يُسلخ إنسان وهو حي. أي وحشية هذه.. ساحة المعسكر إسمنتية، وبها فناء ممتلئ بحجارة صغيرة.

استمر الرجل الخمسيني في الحديث، ولكن الطبيب لم يكن يسمعه، توقف دماغه وتخدرت حواسه.. طنين في الرأس، وصداع مميت.

في اليوم التالي، وهو متجه إلى الغرفة التي يرتاح بها الأطباء، شاهد فتاة سمراء تبكي أمام غرفة الشاب الذي أسعفه بالأمس.. لم يشغله الأمر كثيرا. فقد تعود على مثل هذه الأمور. فالموت والبكاء أيضا، أشياء تصبح عادية عندما تكرر كثيرا أمامك. في الحجرة، حيث يرتاح الأطباء تحادثه الممرضة فاطمة:

- مسكينة هذه الفتاة.. إنها خطيبته.

لم يعرف بماذا يرد. كل ما فعله هو أنه استمر في النظر والاستماع إلى فاطمة:

- تصور أنهما مخطوبان منذ 2009.. كان مقررا زواجهما في نوفمبر 2011، ولكن للقدر أحكام أخرى.

فكر بينه وبين نفسه.. منذ 2009، أي منذ أربع سنوات. انتقلت فاطمة للحديث عن موضوع آخر، عن أطفالها وعن الحياة.. وعاد هو ينظر من خلال النافذة، إلى ما وراء النافذة، إلى ذلك المخيم

توطدت علاقة الطبيب أكثر بذلك الشاب، الذي جاء قبل أيام وهو مصاب.. يزوره يوميا، لتبادل الحديث وقضاء بعض الوقت

اسمه أحمد، مهنته كهربائي وضحكته لا تغيب أبدا. خطيبته مرحة مثله، اسمها صفية، تصغره بعام.. متناغمان إلى حد يثير الذهول، من يراهما يقسم أنهما يعيشان معا منذ عقود.. لا تمل من الطواف حوله.. إن احتاج شيئا، تعرف ما هو من حركة جسده.

في الحجرة حيث يقيم أحمد لتلقي العلاج.. يجلس الطبيب بجانبه على السرير ونظرهما باتجاه النافذة. تناولهم صفية كوبين من الشاي، وتحادث أحمد:

- سأذهب لأتمشى قليلا في الحديقة، هل تريد شيئا آخر؟

- أن تطلي عليَ وأنت تبتسمين.

تبتسم صفية ذَاتَ الابتسامة الرقيقة وتخرج.

الطبيب: هل يمكنني أن أسألك؟

أحمد - تفضل أرجوك

- لماذا لا تتزوجان

يصمت أحمد قليلا:

- بالتأكيد تعلم حجم البؤس الذي نعيشه في ذلك المخيم.

- إلى حد ما

- على الرغم من الأوضاع المزرية للمخيم، وكما تعلم أنني أشتغل كهربائي.. حالتي المادية جيدة، يمكنني تأجير مسكن والانتقال إليه أنا وأمي وصفية. عندما سَأَلْتُ أمي عن الانتقال من المخيم، رفضت الانتقال.. ولكنها ألحت على للانتقال أنا وصفية كزوجين. لا تريد مفارقة جيرانها وأقربائها. كبار السن، كالأشجار العظيمة، كلما كبرت ازدادت قوة وارتباطا بالمكان.

تعلو ضحكته ويستطرد: أمي شجرة عظيمة يغطي ظلها الجميع. لو رأيتها عندما كنا في تاورغاء، تهتم بالكل. بوالدي وبي، بخمسين شجرة، بقرة، عشرة أغنام، وبضع دجاجات. كان أبي دائم المزاح معها، مريم في رقبتك سبعون روحا!

يصمت قليلا.. يعود للحديث مجددا:

- أبي لم يستطع مفارقة أرضه، توفي بعد خروجنا بأسابيع.. كان يريد أن يُدفن في تاورغاء، ولكن كما تعلم.. على الرغم بكل ما مرت به، تبقى دائما قوية.

ابتسم.. فقد أصبحت صفية مرئية من خلال النافذة. يشع بريق من عينيه ويعود للحديث:

- هل جربت يوما أن تأكل التمر وهو رطب قبل أن يتم قطافه، أي وهو في العرجون؟

- لا.

- عليك أن تجرب ذلك.. عندما نعود سنفعل ذلك سويا أنا وأنت

- بإذن الله.

ولكنك لم تجبني على سؤالي، لماذا لا تتزوجان:

- آه نسيت.. على الرغم من البؤس الذي نعيشه في المخيم.. معظم الليالي أقضيها برفقة صفية نشاهد النجوم.. يضحك مجددا. تصور لم يفتنا أي اكتمال للقمر. صفية مثل أمي تماما. لا تريد مفارقة أقربائها وأصدقاءها.. عندما نكون مع بعضنا وننهض ليذهب كل منا إلى مسكنه الصغير من الأنابيب البلاستيكية والصفيح لينام. عندما تلتفت لي قبل دخولها مودعة إياي

بابتسامة، حينها أنسى البؤس، المخيم، وكل شيء على الرغم من أنها أحيانا تبيت وهي تبكي.

- حبا بالله لماذا لا تجيبني بكلمتين؟

تعلو ضحكة أحمد مجددا ويهتز كامل جسده من شدة الضحك:

- بيتنا الذي سنعيش فيه ينتظرنا، مسألة وقت فقط.. هكذا نجيب أنا وصفية كل من يسألنا.

سنعود قريبا، ونعيش في بيتنا كزوجين وسط أرضنا وبين أشجار أبي.. ستأتي لتزورني، وسأسمي ولدي الأول تيمنا بك "رضا".

أحلام 2

(تاورغاء مدينة في غرب ليبيا، تم تهجير جميع أهلها في العام 2011، ومعظمهم يعيش في مخيمات داخل ليبيا)

سار على غير هَدْي حتى وجد نفسه أمام المقهى الذي جلس به هو وصديقه بالأمس حيث احتسى صديقه الجعة. بالداخل يمكن للمرء احتساء المشروبات الكحولية، ويمنع احتساءها بالخارج، أي أمام المقهى على الطاولات المصطفة. جلس وطلب قهوة.. تمنى لو كانت معه جريدة، فمن شدة غضبه لم يكن يريد النظر إلى المارة وإشغال عقله بهم.

جلس يحتسي قهوته على مهل وهو يفكر، كيف سيمضي ما تبقى من أيام برفقة أصدقائه الذين أتى معهم.. لقد نفذت كل طاقة لديه لمسايرتهم والصبر، هذه أسوأ رحلة سفر على الإطلاق.

لاحظ أن الشخص الذي يجلس على الطاولة المجاورة لطاولته قد أنهى قراءة الجريدة التي معه. يخاطبه:

- من فضلك هل يمكنني أن أستعير الجريدة؟

- أجل بالطبع.. يمكنك أن تأخذها، لقد أنهيت قراءتها ولم تعد لي حاجة بها.

- شكرا لك.

يهز الرجل رأسه بمعنى عفوا. يقلب صفحات الجريدة بحثا عن شيء يقرأه.

- مساء الخير

يرفع رأسه وهو يرد التحية:

- مساء النور

تجلس على الكرسي المجاور له. أدركت من لهجته وهو يتحدث مع الرجل صاحب الجريدة، أنه مثلها ليس من هذا البلد، وأنه من البلد الذي يُعد شبابه من أهم الزبائن.

- هل تريد قضاء وقت لطيف؟

- لا شكرا.

لا تكترث الفتاة لرده.. وتمد يدها لتضعها على فخذه.

- شكرا لك لا أريد شيئا، وقد كسى صوته بعض الغضب، ولكنه سرعان ما تمالك نفسه.. ويخرج من جيبه بعض المال ويمده لها.

ترد الفتاة بغضب:

- أنا أعمل ولا أتسول!

وتنهض يكتنفها الغضب:

- أعتذر

خرجت الكلمة من حنجرته مرتبكة، وهي لم تلتفت له.. فكر في اللحاق بها والاعتذار عما بذر منه بلباقة، ولكن خجله كان أكبر من شجاعته في تلك اللحظة.

عاد مجددا للجريدة، ولكن باله بقي معها. حاول أن يقرأ شيئا، ولكنه لم يستطع. أغلق الجريدة وبدأ في النظر إلى المارة. يخرجه الصوت من شروده:

- هل هنالك أحد من أصدقاءك يريد أن يقضي وقتا لطيفا؟ ربما هنالك أحد برفقتك ويريد ذلك؟

ابتسم.. أدرك أن القدر معه:

- أرجوك اجلسي

فَكَرَت في الذهاب، فقد خمنت أنه سيقنعها بأخذ بعض المال مجددا، ولكنها ترددت في المغادرة، فحاجتها للمال كانت شديدة.

- أرجوك اعذريني، فلم يكن بنيتي التصدق عليك، أردت فقط مساعدتك. ماذا أطلب لكِ؟

- لا أريد شيئا. هل هنالك أحد تعرفه ويريد قضاء وقت لطيف؟

- في الحقيقة لا أعرف أي أحد.. ولكن ما أريده منك شيء آخر!

مجددا فكرت في النهوض والمغادرة، فما الذي سيطلبه منها. بالتأكيد شيء غريب. في مهنتها يكون بعض الزبائن عادة غريبي الأطوار ويأتون بأفعال غريبة. حيث أنه وصل الأمر أكثر من مرة، أن قام أحدهم برمي الفتاة التي مارس معها البغاء من إحدى الطوابق العليا. لذلك كانت تخشاهم، ولا تطلب شيئا من الله يتعلق بهذه المهنة، إلا أن يجنبها أمثالهم. ولكن حاجتها للمال كانت شديدة.. الطعام يحتاج للمال، والإيفاء بإيجار المسكن يحتاج للمال، وقبل هذا وذاك، العشرون دينارا عمولة القواد اليومية. الذي يتكفل بحمايتهن وتحصيل مالهن إن رفض الزبون الدفع.

- ماذا تريد؟

- جئت إلى هنا برفقة أصدقائي، ولا تتصورين كم أرهقتني رفقتهم، وآخر شيء أستسيغه، قضاء الوقت بمفردي. أريدك أن تقضي بقية اليوم معي!

فكرت.. هذا النوع أعرفه. بعد أن يثمل يبدأ في سرد ما يزعجه، عن ظلم الدنيا له، عمن خانوه، من أهانوه، عن عقده النفسية واضطراباته.

- ما هذا اليوم!؟

مجددا للمرة الثانية، فكرت في النهوض والمغادرة. ولكن روحها قبل جسدها، لم تطاوعها.

- هل تشرب الكحوليات بنهم؟

- لا.

- هل تتعاطى أي نوع من المخدرات؟

- لا. أنا لا أدخن حتى.

فكرت في أن تسأله إن كان يعاني من أي مرض أو اضطراب نفسي، ولكنها علمت أنه لا جدوى من سؤالها، فبتأكيد ستكون إجابته النفي.

- كم ستدفع لي؟

- في الحقيقة لا أملك الكثير من المال، كم تريدين؟

- مئة دينار.

- لو كان معي لما ترددت في إعطاءك. ولكن صدقيني مالي محدود.

كان هنالك شيء يَجْذِبُ إليه، كان لطيفا. غريبا ولطيفا.

- حسنا سآخذ خمسون ديناراً

ابتسم

- شكرا لك. أرجوكِ ماذا أطلب لك، سنصير رفقة. ويبتسم.

هذه المرة صارت ابتسامته أكثر حرية:

- قهوة

ينادي النادل ليطلب لها قهوة.

النادل: تفضل.

- قهوة وقطعة حلوى للسيدة.

شَعَرَت ببعض الراحة.

أحضر النادل القهوة، وقطعة الحلوى.

- أي شيء آخر.

هي: لا.. شكرا لك.

فتح الجريدة مجددا وهو فرح. الآن، يمكنه أن يقرأ. تناولت قطعة الحلوى واحتست القهوة على مهل، فلم يكن هنالك شيء وراءها، وهو منشغل في الجريدة يقرأ.

فكرت في كل ما مرت به.. وكيف سيمر باقي اليوم. ما الذي تخشاه، وهي التي تنام مع غرباء لا تعرفهم وتذهب معهم حيث يطلبون. ولكن قلبها أخبرها الدعاء وسؤال الله.

أنهى قراءة الجريدة، وجدها قد أنهت بدورها تناول القهوة. تلتفت يمينا ويسارا، وأحيانا تنظر إليه.. كانت الساعة تقارب الخامسة والنصف. بادر بالحديث:

- من المفترض أن أذهب اليوم لقبر الولي الصالح سيدي....

شهقت شهقة غبطة:

- كم أحبه، هل أنت صوفي؟

- مِن محبيهم.

- كم أحبه، كلما تملكني الحزن أزوره.

تَذَكَّر إحدى القصص التي يحبها.. قصة ميمونة.

- هل تعرفين قصة ميمونة؟

- أذكر أن جدتي حدثتني عنها وأنا صغيرة، ولكنني لا أذكرها!

- سأحكيها لك.

يحكى أنه، كانت هنالك امرأة عابدة، تعيش على شاطئ البحر. اسمها ميمونة. كانت عندما تصلي بعد أن تُكَبِّر وتشرع في الصلاة تقول، ميمونة تعرف الله، والله يعرف ميمونة. لا تقرأ أي شيء من القرآن. فقط تقول هذا.

ذات يوم مر رجل بها، كان عابرا.. وجدها تصلي وتَذْكُرُ ما قلت. ميمونة تعرف الله، والله يعرف ميمونة. أخبرها أن الصلاة ليست هكذا، وأن عليها أن تقرأ الفاتحة وبعض الآيات. طلبت منه أن يعلمها بعض القرآن، وفعل الرجل ما طلبت. وحين جاء موعد إكماله سفره، ركب قاربا، وَدَّع ميمونة وانطلق.

طرحت ميمونة سجادة الصلاة وشرعت تصلي.. ولكنها نسيت ما حفظته من القرآن. لم يكن الرجل قد ابتعد كثيرا عن الشاطئ.. انطلقت ميمونة تجري لإيقافه، لكي يعيد تحفيظها.

ذهل الرجل مما يراه، فقد كانت تجري على سطح الماء حتى وصلت إليه، وطلبت منه أن يعيد تحفيظها، فقد نسيت ما حفظته. ووسط ذهول الرجل مما شاهده، قال لها عودي وصلي كما كنت تصلين، فأنت أقرب لله منا جميعا

- ما أجمل قصتها. أتمنى لو يحبني الله عُشر ما أحبها. ولكن من أين لي أن أطمع في ذلك؟ وأنا...

توقفت قبل أن تخرج الكلمة منها، شيء دفعها للتوقف. كان الخجل.

يتكلم هو: هل سببتِ يوما أذى كبيرا لأي إنسان؟

- لا

- هل قطعت يوما رزق إنسان؟

- لا

- هل سرقت يوما حاجة إنسان آخر؟

- لا

- إذاً.. معظم أخطاءك في حق نفسك.. وهذه أيسر الأخطاء التي يغفرها الله، أو لم يقل (قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله) صدق الله العظيم. أسرفوا على أنفسهم، أي أخطئوا في حق أنفسهم. عليك أن ترتاحي، لأنه لن يشكوكِ إنسان لله.

تبتسم: شكرا لك.

يبتسم: أشكري ميمونة!

يصمت قليلا.. ومن ثم يرجع للكلام:

- أعلم أنك تريدين أن ترتاحي وتتركي هذا العمل، وأنا مثلك أتمنى هذا من كل قلبي ولكن لن ينتهي.. مجددا يصمت قليلا بدافع الخجل وخوفا من أن يجرح مشاعرها، ولكنه يستجمع أفكاره ويكمل:

- اعذريني على كلماتي أرجوك. ولكن البغاء لن ينتهي مادام هنالك من يدفع المال من أجله. وأرجوك سامحيني على ما قلت.

- لا عليك، أرجوك لا تعذر فمعك حق.. لو جُمِع كل هذا المال وأُعْطِيَ لمن يحتاجه، لتغير الكثير.

مجددا يصمت، فقد اعترى قلبه بعض الغصة. بدورها انتقلت هذه الغصة إلى صوته.

- جميعنا يا.. صحيح ما اسمك؟

- اسمي أحلام.

- وأنا حسن.

كانت هذه أول مرة تخبر أحدا ممن تقابلهم أول مرة باسمها الحقيقي.. فمنذ سنوات مضت، أصبح اسمها سونيا. ولا يناديها باسم أحلام إلا القلة الذين يعرفونه، والذين تحبهم.

- كما قلت يا أحلام.. جميعنا نحمل أوزار الكثيرين ممن تدفعهم الحياة لكي يخطئوا. فكل من يسرق بدافع الجوع، وكل من تبيع جسدها، نحن مسئولون عن ذلك، بدرجة ما.

وينظر في الأفق يفكر ينظر إليها:

- هل نذهب الآن؟

- ولكن ملابسي لا تناسب الذهاب.

- سنشتري قميصا آخر.

ينزلان من سيارة الأجرة، ويصعدان السلالم المؤدية للضريح والمسجد الصغير المقابل له، حجم المسجد صغير فهو في الحقيقة غرفة ربما بطول خمسة أمتار وعرض أربعة، ولكنه يحتوي على منبر عال ومحراب.

لطالما حيرته القدسية التي يحتوي عليها هذا المسجد، فالنور يملئه والسكينة فيه مختلفة. يدخل هو للمسجد لكي يصلي، وتدخل هي للضريح.

ينهي صلاته ويخرج باتجاه الضريح.. الضريح يتوسط حجرة صغيرة، تسبق الحجرة سقيفة أصغر. بجانب حجرة الضريح حجرة أكبر من حجرة الضريح ومن المسجد مجتمعين، تحتوي على بعض الكراسي والفرش لاستقبال الزائرين. الضريح بارز إلى أعلى، تصعد من زواياه الأربعة أعمدة من خشب تنتهي بسقف خشبي، الثريا المعلقة جميلة، وإنارتها أقرب للنور منها للإضاءة.

أحلام جالسة، وتحرك شفتيها، لم يكن واضحا إن كانت تقرأ القرآن أو تدعوا، أو تتحدث مع الولي الصالح الراقد في القبر.

توقف للحظات قبل الدخول يتأملها، فالنور الساقط من الثريا، والسكينة المنتشرة في الهواء، كأنهما خلفية وجدتا لتبرزا جمالها الهادئ. متوسطة

الطول، شعرها أصفر. كثر هنا النساء اللواتي يصبغن شعورهن باللون الأصفر. كان كل شيء فيها مريحا للعين، قوامها وحركتها.

سَلَّمَ ودخل، رفعت رأسها، حتى عيناها العسليتان جميلتان. وانكب يقرأ القرآن. بعد أَن انتهى، نظر إليها بمعنى هل نخرج. فهمته وقامت ليخرجا.. وضعا بعض المال في صندوق الصدقات، أخبرتهم السيدة التي تجلس دائما في السقيفة، بأن زيارتهم مقبولة إن شاء الله. شكراها وخرجا. في الخارج توقفا لتناول الكعك المغلف بالسكر.

- طعمه لذيذ جدا.

- أجل.

- هل يمكنني أن أسألك؟

- بالطبع.

- هل طلبت شيئا عندما كنا بالداخل؟

- هذه المرة لا. شكرت الولي الصالح فقط.. في المرة السابقة أجل طلبت.

- وهل تحقق ما سألت الله؟

- أجل.

فكرت أن تسأله ما هو، ولكنها تراجعت:

- أنا أيضا لطالما سألت الله شيئا، وها قد تحقق.. سألته أن يرسل لي صديقاً ورفيق. وقد استجاب لي، أرسلك أنت.

تمر لحظات صمت وخجل. يبتسم ويتحدث:

- دعينا نذهب إلى حيث البحر، ستغرب الشمس قريبا.

حيث المنحدر الأخضر جلسا، على يمينهما قليلا الميناء الصغير، وأمامهما هذا الامتداد الأزرق الجميل

أخذت رشفة من كوب الشاي الأخضر.. كلاهما يشربان نفس الكوب. فعندما ذهب ليحضر شاياً، سألها إن كانت ترغب ببعض الشاي أَجابته لا أريد، أحضر كوبا واحداً وسآخذ بعض الرشفات.

كان الأفق أمامهما جميلا، جزيرة صغيرة أمامهما، لا تبعد كثيرا عن الشاطئ، لا يعرف اسمها، لم يسأل عنه، وحتى الآن وهو يفكر في ذلك لم تحركه رغبة ليسأل. مالت أحلام للخلف حتى أصبحت ممددة على ظهرها ونظرها للسماء:

- النظر للسماء أسهل من النظر إلى البحر. البحر دائما يغري بالسفر. أتعلم بماذا أحلم؟

- بماذا؟

- بالعيش في الهند! أريد العيش هناك ولو لمدة.. لعدة أسباب؛ أولها فرق العملة بيننا وبينهم، مما سيمكنني من العيش براحة مدة جيدة إن وصلت إلى تجميع المبلغ الذي أسعى إليه. والثاني أنني لن أشعر بملل كبير هناك، وربما لن أشعر به أبدا، سوف أقضي أيامي بين المهرجانات والأعياد. سأحتفل بأعياد المسلمين والهندوس والمسيح، بالتأكيد تعرف العيد الذي يرش فيه الهنود الألوان على بعضهم البعض.

- أجل.

- يدعى عيد هولي، عيد الربيع. يحتفل به لقدوم الربيع ولطرد الأرواح الشريرة.. سأشتري عشرات الأكياس من الألوان. حتى الفيلة يتم تلوينها وتزيينها. وفي عيد الهلوين، سأملئ جيوبي بالسكاكر والحلوى وأجوب الشوارع بحثا عن الأطفال. أه وبالتأكيد سأنتظر بلهفة عيد ديوالي، عيد الأنوار. يحتفل به في الخريف ويستمر لخمسة أيام. يحتفل في يومه الرابع بالألعاب النارية وإضاءة الشموع في البيوت والشوارع. لن أشعل شمعة واحدة، سأشعل شمعة لكل من أحب. سأرمي الطعام للقردة التي تتجول في الشوارع بحرية، وإذا ما تمادى قرد في وقاحته، سأضربه. وتضحك.

سأزور تاج محل، وجميع المعابد، حتى الغريبة منها، وبالتأكيد سأمارس اليوغا مع الجموع في الهواء الطلق.. ربما سأسبح في نهر الغانج إن وجدت المياه نظيفة

أريد العيش هناك أنا وابني وابنتي عندما أرزق بهم. أحلم ببيت صغير يجمعنا.

والتفتت باتجاهه وهي مبتسمة وأخذت تتأمله.. تملكها شعور قوي في القول له ما رأيك في أن تمنحني أحدهما، إحدى طفلي. انتابه الفضول لابتسامتها وإطالة نظرها إليه وهي صامتة:

- بماذا تفكرين؟

- كنت أفكر. إن كان مقدرا لي أن أنجب أطفالا، فإنني أريدهم يشبهونك أنت وأمي؟

ابتسم: أتمنى أن يكونوا أفضل مني.

- أريدهم مثلك أنت وأمي، لا دخل لك إنهم أطفالي وتضحك. ضحكة يتخللها بعض الحزن.

مجددا تنظر إلى السماء:

- هل تعلم أن أمي كانت دائما تقسم أني سأقوم بما لم تستطع القيام هي به. حفظ القرآن. كانت دائما تقول للجيران والأقارب. أقسم أن أحلام ستفعل ما لم أستطع القيام به، ستحفظ القرآن كاملا.

تصمت قليلا وتعود للكلام مجددا:

- لقد كانت دائما تقول لي، أن ملاكا قد رسمني في بطنها. فقد رأت في المنام أن ملاكا دخل إلى رحمها وقام برسم فتاة بداخله، وبعد أيام قليلة علمت بأنها حبلى بي. كم أتمنى تحقيق أمنيتها. عندما كنت صغيرة وصلت أن حفظت ثلثه، ولكن عندما تُوفيت، حاولت أن أكمل ولكنني لم أستطع. من الصعب أن تعيش فتاة بمفردها في هذه الحياة.

تتنهد:

- لا يمكن أن أصف لك شوقي لها. كلما اقتربت الحياة من أن تكسرني، أناديها. فتأتي دائما بثوب مزين بأزهار. ليس نفس الثوب، كل مرة بثوب مختلف، ولكن جميعها بلون أبيض مشرق مرسوم عليه أزهار، أحيانا صغيرة، أحيانا متوسطة، وأحيانا كبيرة. تجلس، وأجلس أمامها تسرح شعري. أشتكي لها، فتستمع لي وهي تبتسم. بعد أن تنهي تسريح شعري، تأخذ رأسي بيدها وتجذبني لأستلقي عليها، أستمر في الشكوى وهي تمسد على شعري وعلى شفتيها نفس الابتسامة. أمد شفتي أريد تقبيلها دونما أن أرفع رأسي، فتنحني وتقبل شفتي، وبعدها يغلبني النوم. أستيقظ وقلبي دافئ.

تنظر إليه:

- لا تقل إنني هشة، وتبتسم.

لا أذكر أبي، فقد توفي وأنا صغيرة، ربما عمري عامين. رفضت أمي الزواج بعده، كانت كل عالمي، وكنت كل عالمها. اسمها سكينة.

تمنت لو كانت معها صورتها حينها، لتريه إياها:

- لقد كانت جميلة.

مجددا تصمت للحظات ومن ثم تكمل حديثها:

- عندما يرحل من تحب، ولم تشبع منه، فإن ذلك يترك جرحا في الروح لا يلتئم. أرجوك أعذرني. فبالتأكيد أصبتك بالضجر، من سرد ذكرياتي.

- على الإطلاق يا أحلام. لكل منا نصيبه من الأحزان والآلام.

- لم أقل لأحد معظم ما قلته لك. الروح تحب التحدث معك.. تبتسم وتستطرد في الحديث:

- يجب أن تزورني في الهند.

- إن شاء الله. وبالتأكيد ستحققين حلمك الآخر وتحققين أمنية والدتك، وتحفظين القرآن.

- شكرا لك.

- أريد تناول الطعام.. هل نذهب؟

- أعذرني لا أتناول الطعام في الليل.

لم تكن تريد تكليفه المزيد من المال. بعد انقضاء المساء ومشارفة اليوم على نهايته، طلبت منه مرافقتها للبيت. أخذا كل المسافة مشيا على الأقدام:

- هذا هو المسكن حيث أعيش.

هز برأسه، بمعنى حسنا. أدخل يده في جيبه ليخرج مالا. تمسك يده قبل أن يخرجها من جيبه:

- شكرا لك.. لا مال يوازي الوقت الذي قضيناه معا.

مجددا يبتسم، دونما أن ينطق بكلمة. تمر لحظات صمت:

- هل نلتقي غدا، قالاها معا في نفس اللحظة؟

هو: كنت مستحياً أن أطلب ذلك.

- وأنا مثلك تماما

- غدا سنتناول الطعام في بيتي.. سأطبخ، وسأريك صورة والدتي.

- حسنا نلتقي غدا يا أحلام.

حضنته: شكرا لك.

- بل الشكر لك يا ملاك.

قبلته على خده واتجهت إلى بيتها.

ذهب هو أيضا عائدا للذين أتى معهم، من يشعر بالرضا لأنه لن يقضي باقي أيام الرحلة برفقتهم.

تناديه: يا حسن.

يلتفت:

- منذ اليوم، توقفت عن هذه المهنة!

يلوح لها بيده وقلبه مبتسم.



اليوم التالي. كانت الساعة تقارب الحادية عشر صباحا عندما رن هاتفه.. يرد:

- ألو؟

- مساء الخير.

- مساء النور. ويكتسي صوته بالفرح:

- أحلام.. كيف حالك؟

- بخير، وأنت؟

- سعيد لسماع صوتك.

مرت لحظات صمت، قبل أن تتكلم أحلام:

- اتصلت لأسألك.. هل تحب السمك؟

- أجل.

- حسنا. أردت أن أسألك، فلا أريد إعداد شيء لا تحبه.

مجددا لحظات صمت.

- حسنا سأذهب الآن لأشتري السمك.

تلقف حسن جملتها كأنه شيء كان ينتظره. نعم كان ينتظر شيئا كهذا دون أن يعي ذلك:

- من أين ستشترينه؟

- من السوق المركزية.

- هل يمكنني مرافقتك.

- بكل تأكيد.. يسعدني ذلك. نلتقي هناك بعد نصف ساعة.

- إن شاء الله.. سلام.

- سلام.

أمام السوق وجد أحلام مرتدية نفس القميص الذي اشترياه بالأمس، وفي يدها حافظة صغيرة، يحفظ فيها السمك عادة.

قبلته على وجنتيه، فهنا في هذا البلد، يسلم الناس على الأقرباء والأصدقاء والأحباء بتقبيل الوجنتين.

اشترت السمك وبعض الخضروات والفواكه، حاول دفع الثمن ولكنها اعترضت قائلة، حينها لن تكون عزومة. وضعت السمك في الحافظة التي تحملها وحمل هو باقي الأغراض.

خارج السوق سألته:

- هل نتمشى؟ أرغب بالمشي.

- حسنا.

- غريبة هذه الحياة، بالأمس تكون على حال، وفي يوم تنقلب إلى حال آخر.

- أجل.. نسأل الله أن يكون التغيير دائما للأفضل.

- أحيانا أفكر، هل حياتنا ملكنا أم أن إرادة الآخرين، الله وبعض البشر هي التي تُسيِّرها.

فكر للحظات:

- هي كل ذلك يا أحلام. أفعال نفعلها بملء ارادتنا، وأفعال تفرض علينا، دروب نختارها، ودروب تختارنا. حياتنا نشترك في صناعتها نحن وإرادة الله، القريبون والبعيدون، الأرواح، والهواء، والطبيعة.

فكرت في روح أمها، وأنها تحميها وتساندها، وأن لقاءها به جعل قلبها يميل للتوقف عن العمل كبائعة هوى بدون أن تخشى العواقب مما جعل ابتسامة ترتسم على شفتيها:

- معك حق يا رفيقي.

- الحياة كما القدر يا أحلام. نص كتبه الله، وأعطانا الحرية لنكتب بعض فقراته.

سارا حتى وصلا إلى محطة قطار.

- أرجوك فلنجلس هنا، أحب الجلوس بمحطات القطارات

جلسا على أحد الكراسي. لم تكن المحطة مزدحمة، بعض الركاب ينتظرون، وفتى وفتاة يبيعان الأزهار. ما إن رآهما الفتى والفتاة حتى اتجها ناحيتهما مسرعين. متقاربان في العمر، بين الثانية عشر والثالثة عشر، وإن كان الفتى يبدو أكبر بقليل، نحيلان ولكن مَوْفرا الصحة والاتقاد بالنشاط.

كان الفتى أسمر بلون برونزي جميل، شعره قصير، ويرتدي ثيابا قديمة بهتت ألوانها. والفتاة ترتدي قميصا بنصف كم، وتنورة واسعة تصل إلى الركبتين

لونها بنفسجي فاتح. ثيابها أيضا قديمة بهتت ألوانها، عيناها وشعرها بلون بني فاتح، وابتسامتها تجعل المرء يدرك إبداع الله واتقانه في الصنع.

- يا عمي اشتري مني وردة لحبيبتك.

تكلم الفتى.

ابتسم حسن وأحلام، وأخرج من جيبه نقودا. اشترى من الفتى زهرة ومن الفتاة زهرة. ابتسمت الفتاة الصغيرة وشكرته، فهو لم يكن مضطرا ليشتري من كليهما.

سألتهما أحلام: هل أنتما أخوان.

يرد الفتى:

- لا. نحن نسكن بالقرب من بعضنا، أمها صديقة أمي، ووالدها صديق والدي، ندرس في نفس المدرسة، إنها خطيبتي. ويضحك.

تنظر الفتاة إلى الأرض خجلا.

- أتمنى ألا تفرقكما الحياة، وأن تعيشا مع بعضكما البعض في سعادة.

ترد الفتاة: شكرا لكِ.

ويعود كلاهما إلى حيث كانا بانتظار الزبائن.

تمر سيدة ترتدي ثيابا فاخرة تتمشى وبرفقتها كلبها الصغير على رصيف المشاة المحاذي للمحطة. راقبتها الفتاة الصغيرة بكثير من الاعجاب.. أدرك الفتى أنها تحلم بمثل ذلك.

قفز على الكرسي وقال بصوت عالٍ للفتاة كأنه يريد الدنيا أن تسمعه: غدا. أقسم أنني سأجلب لك كل ما تحلمين به، صحيح أننا اليوم نبيع الورود والأزهار، ولكن غدا سنزين بهما حديقة منزلنا. أقسم بذلك يا نرجس.

تبتسم الفتاة وتشع عيناها أيضا بابتسامة. وكذلك كل الموجودين بالمحطة. يتوقف القطار، تتكلم الفتاة الصغيرة:

- هيا فلنذهب. واتجها ناحية الركاب النازلين.

أحلام:

- فليحفظهما الله ما أجملهما.

ينزل ركاب ويصعد آخرون. ومن بين النازلين رجل يرتدي زي رجال الدين. جلس على أول مكان وجده شاغرا، بجانب أحلام وحسن. حسن يجلس على يمين أحلام والرجل على يسارها.

لم تمضي دقائق حتى عادت المحطة كما كانت، خالية إلا من عدد قليل من الركاب. أمسكت أحلام بيد حسن وبادرت بسؤال الرجل الذي جلس بجانبهما:

- سيدي الشيخ؟

- نعم يا أختي.

- هل يمكن أن أحفظ القرآن وأنا في هذا العمر؟ أم أن الأمر صعب.

- لماذا تريدين حفظه؟

- لا أعلم حقيقة. لطالما كانت أمنية أمي أن أحفظه، دائما كانت تقسم بأنني سأقوم بذلك.

- وأنتِ

- أحبه كثيرا، أنه في قلبي، أحيانا تمر شهور دونما أن أفتح مصحفا، ولكنني أشعر دائما أنه بداخلي. يسري بداخلي.

- ستحفظينه. وأخذ يتأملها لما يقارب الدقيقة:

- ليس المهم أن تحفظيه، بقدر ما أن تدركيه. إنك موسومة أن تدركيه.

- ماذا تقصد سيدي الشيخ؟

- مقدر لك أن تدركيه معنا ورمزا وحكمة. قسم أمك كان مبنياً على شعور يملئ قلبها، كانت تقسم بما تحسه.

عادت لها ذكرى رؤيا أمها قبل أن تعلم بأنها حبلى بها.

مجددا أخذ يتأملها، وأكمل:

- داخل كل قلب بذرة، إن توفرت لها ظروف النمو ستنمو. إن كانت بذرة خير، ما إن تتوفر لها الظروف حتى تنمو وتزهر، وإن كانت بذرة شر، فإن صاحبها سيقوم بالشر.

تمر لحظات تأمل. كلٌ يفكر فيما قاله الشيخ. تتكلم أحلام:

- هل يمكن أن تدلني على مكان جيد.

- سأتكفل بذلك.

ويتوجه بالكلام لحسن:

- أنت أيضا مقدر لك أن تحفظه وتدركه.

تتكلم أحلام:

- أحقا يا سيدي الشيخ؟

- اسمي عبد السلام الأسمر، قولي لي يا شيخ عبد السلام، إن لم تريدي أن تخاطبيني باسمي مباشرة، ولكن لا تقولي لي سيدي الشيخ.. أجل مقدر له ذلك

حسن: إن شاء الله.

يتكلم الشيخ مجددا:

- إن الله ألقى نوره في العقل، وأسراره في الكون والقرآن. والبصيرة في القلب. وأنتما عقولكما نيرة وقلوبكما حرة. يجب أن تجتهدا في التأمل.

أخرج من جيبه ورقة مكتوب عليها عنوان وأعطاها لأحلام.

- سأنتظرك في هذا العنوان غدا بعد صلاة العصر إن شاء الله.

- إن شاء الله.

وينهض ليذهب، لم يكن ينتظر القطار، فهذه آخر محطة.

يخاطب أحلام:

- عليكِ أن تنسي ما مضى. عندما يحبك الله، فإنه يضعك في أجمل مكان في هذا الكون، في قلب من تحبه ويحبك، عندها تنال الجنة والخلود والأبدية. وأنتما مكرمان بالحب.

ويكمل طريقه..

دفتر تلوين

- دفتر تلوين جميل.. من أحضره لك؟

- أمي.

وتتجه إليه ودفتر التلوين في حضنها تغمره بكلتا يديها.. في الخامسة من عمرها تجلس أمامه وتفتح دفترها.

- هل يمكنني مساعدتك؟

تهز رأسها بمعنى أجل، وهي تقلب صفحات الدفتر كأنها تبحث عن رسمة معينة لغرض تلوينها.

اختارت رسمة لفتاة ترتدي قميصا مرسوم عليه قلب كبير:

- هل سنلون هذه الرسمة؟

- أجل.

- بماذا سنبدأ؟

- سنبدأ بالقلب؟

يخرج اللون الأحمر من علبة الألوان.

- ما الذي ستفعله؟

- سأبدأ بتلوين القلب.

- ولكن لن ألونه بالأحمر.

- بأي لون إذا؟

- أريد تلوينه بالأخضر.

- ولكن القلب لونه أحمر.

- لا. القلب لونه أخضر.. كيف لا تعرف أن القلب لونه أخضر!

وتباشر في تلوين القلب باللون الأخضر

- ماذا سألون أنا؟

- لون الشعر باللون الأحمر.

تمر لحظات وهما منهمكان في التلوين. تتكلم فرح.. الفتاة الصغيرة اسمها فرح:

- أريد أن أقدم هذه الرسمة هدية لصديقتي قمر. لقد أهدتني دمية، هي صنعتها بنفسها. انتظر سأريك إياها.

وتذهب لتحضر الدمية.

- ما أجملها، إنها تشبهك. فستانها نفس فستانك الأحمر، وشعرها كستنائي مثل شعرك.

وهي تبتسم: أجل.. قمر قالت إن هذه الدمية أنا.

شد انتباهه بقعة حمراء على الدمية. ولاحظت فرح انشغاله بالبقعة الحمراء، وببراءة الأطفال أجابته عن السؤال الذي كان يدور في ذهنه ولم يسأله:

- إنها بقعة دم.. دم قمر.. إنها تصنع الدمى مع أمها، بغرض بيعها. وأحيانا كثيرة تتعرض لوخز الإبر، عندما تخيط.

- بماذا سنلون العينين؟

- أريد تلوينها بلون الماء، وبما أنه لا يوجد لون كلون الماء، سنبحث عن أقرب لون للون الماء.

تصمت للحظات، وتعود للحديث مجددا:

- لماذا لا يوجد لون كلون الماء؟

- ولكن ليس للماء لون.

تتحدث بجدية العارف والمدرك:

- أنت لا تعرف أي شيء عن الألوان. للماء لون، وهو حي أكثر من جميع الألوان الأخرى. يجب أن يوجد لون شفاف وبه بريق، مثل بريق انعكاس النور على سطح الماء، عيناَ قمر هكذا لونهما.

خمن أن لون عيني قمر، قريب من لون الماء أزرق.

- هل لون عينيْ قمر أزرق.

- لا. لون عينيها بني.

- حسنا لماذا لا تلونين العينين بالبني.

- أنا أيضا سألونهما بالبني. ولكن عينا قمر شفافتان وصافيتان، ولو كان هناك لون كلون الماء، للونت به العينين.

بعد لحظات:

- حسنا الآن انتهينا.. ما رأيك؟

- جميلة. كجمالك، وجمال صديقتك قمر.

تاتسو

- علينا أن نفعل شيئا وإلا مات.

- من هو هذا الرجل، ولماذا تهتم لأمره.

- ساعدني الآن، ونتكلم لاحقا.

- يحتاج إلى الحرارة، يكاد دمه يتجمد.

- أعرف، لهذا أريد مساعدتك، لا أعرف ماذا أفعل؟

- نحتاج إلى نار. فلنذهب إلى سيد النار.

- لن يهتم، وعلى الأغلب لن يقبل بأن يشعل لنا بعض النار.

- علينا أن نجرب، لا حل آخر، إما هذا، أو سيموت!

ذهبا حتى وصلا أمام كهف يعلو الأرض بأمتار، وأخذا يناديا: يا تاتسو. خرج ووقف عند فتحة كهفه، مستطلعا من يناديه. ما إن رأياه، وحتى قبل أن يسألهما ماذا يريدان، بادراه بالطلب:

- تاتسو نريد أن تشعل لنا نارا.

تاتسو قرد شمبانزي، جاء إلى الغابة قبل سنوات برفقة فريق من العلماء، كان قردا أنيسا يعامله أفراد الفريق كفرد من جماعتهم، أو من عائلتهم، لم يكن يعيش في قفص، بل حر طليق له حرية الحركة والتنقل، ويمتلك فراشه الخاص حيث ينام، ذكي للغاية، ومفتون بالنار.

ذات يوم لمح أنثى شمبانزي بالقرب من المخيم، قادها الفضول إلى حيث هم. رأى تاتسو العديد من إناث الشمبانزي من قبل، ولكن هذه كانت مختلفة.

تأثر تاتسو بها كثيرا وأصبح كلا منهما يراقب الآخر من بعيد، يقضيان ساعات ينظر كلا منهما للآخر. ولأن تاتسو تربى مع البشر، ولا يحتك بقرود الشمبانزي إلا ما ندر، فلم يكن يستخدم لغة القرود إلا قليلا، يغلب عليه الصمت والتعبير بعينيه وقسمات وجهه، هكذا كان يتفاعل مع البشر الذين تربى بينهم. قرد بكثير من طباع البشر هذا ما كان عليه.

بعد انقضاء أيام، أخذ تاتسو المبادرة، وبتأثير من العاطفة والفضول، تجاوز نطاق المخيم، واتجه إلى أنثى الشمبانزي وصعد الشجرة حيث هي موجودة. مد يده ليصافحها، فمنذ أن كان صغيرا، تعلم أن يمد يده مصافحا لكل بشري

يقترب منه، وكان من يصافحه من البشر يضحك ويهلل، فتعلم أن هذا يبهج الآخرين.

نظرت إليه أنثى الشمبانزي باستغراب، شعرت باضطراب، ورجعت خطوة للخلف. لم يستوعب تاتسو لماذا لم تصافحه. رد يده وجلس.

أخذ كلا منهما ينظر للأخر للحظات، تاتسو جالس في مكانه، وهي حيث تراجعت. اقتربت الأنثى وجلست بجانبه، مدت يدها لتلمسه، مد تاتسو يده ظنا منه أنها تريد مصافحته، التقت أيديهما، فابتسم تاتسو ابتسامته المعهودة التي يصنعها في وجه البشر عند المصافحة سالًّا منهم الضحكات.

مدت يدها مجددا لتلمسه، مد تاتسو يده ظنا أنها تريد أن تصافحه مجددا، التقت أيديهما، وابتسم تاتسو مجددا ولكن هذه المرة ابتسامة أكبر. جلست بجانبه، وبعد عدة مداعبات، أصبح كلا منهما يألف الأخر ويلازمه.

لاحظ فريق العلماء، جلوس تاتسو على الشجرة القريبة مع قرد آخر، خمنوا أنها أنثى، وقاموا بالتقاط الصور لهما في جو من المرح. نادوا على تاتسو ليتناول طعامه، نظر إلى الأنثى بجانبه للحظات، ومن ثم اتجه للمخيم.. أخذ ما في صحنه ورجع مباشرة إلى الشجرة والأنثى. كانت هذه أول مرة يأخذ طعامه ولا

يتناوله وهو جالس على صحنه، مما دفع بفريق العلماء إلى الضحك.. ناول الأنثى ثمرة وأخذا يتناولان الطعام.

قضى تاتسو يومه هو والأنثى على الشجرة حتى حل المغيب، ناداه فريق العلماء، حاول أن يقنع الأنثى بالذهاب معه، ولكنها لم تتحرك إلا خطوة للأمام ومن توقفت.

عندما أدرك تاتسو أنها لا تريد، عاد إلى المخيم بخطوات ثقيلة وبطيئة. ظلت الأنثى لبعض الوقت تراقب تاتسو من بعيد، ومن ثم غادرت.

عادت في اليوم التالي وجلست على الشجرة، وما إن رآها تاتسو حتى ذهب إليها مسرعا، وفي يده بعض الثمار. ما إن وصل إليها حتى مدت يدها لتصافحه، تصافحا وأطلقت صيحات تدل على الابتهاج، وهو ابتسم ابتسامته المعهودة، ومن ثم صاح كما صاحت.

أصبحا لا يفترقان طوال فترة النهار. وذات يوم، عندما نادى فريق العلماء على تاتسو عند اقتراب المغيب ليرجع، نظر مطولا للمخيم ومن ثم غادر مع الأنثى باتجاه الغابة. استقرا في كهف، هو نفس الكهف الذي يعيش به الآن، وأخذ يتردد على المخيم ليقضي الوقت فيه برفقة فريق العلماء، وعندما يحين موعد الغروب يغادر مع أنثاه الذي تجلس على الشجرة بانتظاره.

ظن العلماء أنه سرعان ما سيعود إلى المخيم بعد انقضاء فترة التزاوج، ولكنه لم يعد ليستقر معهم.

حينما حان وقت مغادرتهم، ذهبوا بحثا عنه، بين مجموعة الشمبانزي في الغابة ولكنهم لم يجدوه، عادوا للمخيم فوجدوه يجلس على أحد الكراسي، وأنثاه على الشجرة، قضى الوقت معهم، وعندما حان وقت الغروب غادر. لحقوا بهما فوجدوه يعيش مع أنثاه في كهف، بمعزل عن مجموعة القرود

عندما أدرك فريق العلماء أن تاتسو قد استقر، ويبدو أنه لن يعود معهم، تركوا له العديد من السكاكر التي يحبها والعسل وغادروا.

افتتان تاتسو بالنار لم يتغير، كان يحب الجلوس على مسافة آمنة منها ومشاهدة ألسنة اللهب لوقت طويل. أدرك من خلال مشاهدته للعلماء عندما يريدون إشعال النار ولا تشتعل، سكبهم بعض السائل على الأخشاب الندية، فتشتعل النار مباشرة، كان يعرف استعمال القداحة، فإحدى الحيل التي كان يتقنها إشعال سيجارة لمن يطلب منه ذلك.

نجح في أخذ بعض القناني التي تحتوي على البنزين وقداحة عندما كان فريق العلماء مشغولا وخبأها في الكهف. وذات يوم قام بجمع بعض الأخشاب ووضعها فوق بعضها، رش بعض السائل عليها، كما رأى أكثر من مرة، وقام بواسطة القداحة بتقريب شعلة النار من الأخشاب، فاشتعلت النار. علا

صراخه بفعل الإثارة، وتملك أنثاه الهلع، ولكنه قام سريعا بطمأنتها، وأجلسها بجانبه على مسافة آمنة من النار، وأخذا يشاهدان ألسنة اللهب تتراقص. أصبح مشهورا بين الحيوانات الأخرى بسيد النار، أصبح مُهابا، محترما من الجميع، وصاحب مكانة خاصة.

نظر إلى طائريْ البوم، اللذان يقفان أمام الكهف وعاد إلى داخل كهفه. تكلم أحدهما بسرعة:

- هنالك إنسي سقط مغما عليه في العراء لوحده، ولم نجد إنسيا آخر على مقربة منه، والهواء بارد جدا كما ترى، ونتف الثلج بدأت في السقوط، نخاف أن يبرد دمه فيموت.

ما إن سمع تاتسو ذلك حتى توقف، عاطفته للبشر كفيلة لجعله يفعل أي شيء.

- أين هو الآن؟

- سنأخذك إليه.

أخذ تاتسو القداحة، وزجاجة بنزين وغادر مسرعا.

الإنسي شاب في الخامسة والعشرين من عمره، يعيش حياة مستقرة، مهنة جيدة براتب جيد، ومسكن خاص يملكه. غادر في رحلة سياحية، ودع صديقته على عتاب منها لأنه يسافر بدونها، وعدها أنه سيعوضها بأن

يسافران معا إلى الوجهة التي تحب عندما يتزوجان. عندما عاد، لم تعد تخاطبه، ولا ترد على رسائله، حاول أكثر من مرة أن يعرف ما حل بها، ولكن عبثا كانت محاولاته.

مرت أشهر بدون أن تسأل عنه، على الرغم من أنه دائما ما كان يردد لها، كأنما الحياة في صوتك، لا تجعلي صوتك يغيب عني. على الرغم من الرضا الذي كان يملئ روحه، لم يكن يحس بأي شيء. كل شيئا كان ناقصا بغيابها. دخل في حالة من الاكتئاب جعلته يميل إلى العزلة. أخذ قرارا بأن يقضي بعض الأيام مخيما في البرية بعيدا عن كل شيء، عله يجد بعض السلام.

وفي هذه الليلة حيث وقع مغما عليه، اشتدت كآبته وتخدرت حواسه للدرجة التي جعلته لا ينهض من مكانه ليضع المزيد من الحطب على النار قبل أن تنطفئ، أو يدخل خيمته. بل ظل في مكانه يراقبها وهي تموت

على مهل، كان الخدر والنعاس اللذان شعر بهما، أكبر من أن يجعلاه يهتم لأي شيء، أغمض عينيه مستلما وقانعا بالنعاس والنوم، فعندما سينام، سيتوقف عقله عن التفكير بها، وبالحياة وما كانت عليه، وكيف هي الآن. نام وكان الهواء البارد المحمل بنتف الثلج كفيلا بأن يجعله يفقد الوعي ولا يدرك شيئا مما حوله.

عندما وصل تاتسو ومعه طائرا البوم، وجدوا الرجل باردا جدا، وطبقة رقيقة من الثلج تكسوا الغطاء الذي عليه. أسرع تاتسو بجمع بعض الأخشاب وتكويمها فوق بعضها البعض، رش بعض البنزين فوقها وأشعل قداحته لغرض إشعال كومة الأخشاب، ولكن الرياح ما كانت تسمح لشعلة القداحة أن تبقى أكثر من ثانية، عندها قام طائرا البوم بفرد أجنحتهما على امتدادها لرد الريح حتى يتمكن تاتسو من إشعال النار في الأخشاب. أشعل تاتسو النار في الكومة، وأخذ يمدها بمزيد من الأخشاب كلما ضعفت النار.

بعد انقضاء ما يقارب الساعة وتاتسو جالس يراقب النار، وطائريْ البوم يراقبان من الشجرة، قام الرجل وجلس. عندها قام تاتسو من مكانه وغادر متجها إلى كهفه، وإلى أنثاه.

قام الرجل من مكانه غير متأكد إن كان رأى قردا أو لا، أطفأ النار، ودخل إلى خيمته ليكمل نومه.

مستنقع

في البداية كانت تتأمله بإعجاب.. لم يعر الأمر اهتماما. فالمرء أحيانا يفتتن بأشياء، ولا يفهم الآخرون السبب.

تطور الأمر وأصبحت تجلس على حافته، ومن ثم بدأت تدخل قدميها فيه. شرح لها أنه غير نظيف وقد يسبب لها طفحا جلديا. توقفت لفترة عن هذه العادة، ولكن ذات يوم وجدها جالسة في وسطه، والمياه تصل حافة نهديها من أسفل.

تملكته الرغبة ليصرخ، ولكنه لا يستطيع الصراخ عليها، قلبه قبل صوته لا يطاوعه. حادثها، فخرجت.. ولكنها عادت في اليوم التالي وجلست في وسطه مجددا، استجداها فخرجت.

في اليوم التالي عادت، ومجددا اتخذت مكانها في وسطه. تبرم.. حاول الكلام، ولكن الكلمات لم تسعفه ولم تطاوعه. استسلم للبكاء. أصبحت تجلس وسط هذا المستنقع معظم الوقت، تراقب الفقاعات على السطح بريبة، أحيانا تسبها، وأحيان أخرى تدعو إحداها بصديقتي.

المستنقع ليس بكبير، مياهه يغلب عليها اللون الأخضر، وبالقرب من إحدى حوافه شجرة كبيرة، يغطي ظلها المستنقع، وورائه، أي وراء المستنقع، صف طويل من نبات القصب، نبت في خط مستقيم كأنه جدار، يحجب رؤية ما ورائه.

كلما جلست في المستنقع، كانت حالتها الذهنية والنفسية تتذبذب بين السرور والتركيز الشديد، بين الشرود لفترات طويلة، والبكاء والصراخ، بعد أن تقضي فترة في المستنقع تتأمل الفقاعات على السطح، وبقع الضوء التي نفذت من خلال أوراق الشجرة وتنعكس على سطح الماء.

ودائما في هذه المرحلة يخرج ضباب من وسط الماء ومن حواف المستنقع ويلفها من جميع الجهات. تظهر صور لمدن جميلة أمامها داخل الضباب، شواطئ خلابة، أناس تتملكهم الغبطة يملئون الشوارع والمقاهي بملابس غاية في الجمال، وترى نفسها هناك بينهم، في كامل أناقتها، وزوجها جالس بجانبها، حينا في مقهى، وحينا في حديقة عامة. يتنقلان من مدينة لأخرى، ومن حي إلى آخر. ومن ثم تختفي تلك الصور، وتظهر صور أخرى لنفس الأماكن، ولكن هذه المرة مدمرة، ومهجورة من كل شيء، إلا من البؤس. ومن ثم ترى نفسها وحيدة في بقعة خالية لا شيء فيها، سوى الرمال، والأحجار.

يصير الضباب أكثف، ويلفها أكثر فأكثر، حتى يحجب عنها الهواء. وهنا تبدأ بالصراخ: أنقذني. يهرع إليها زوجها راكضا، يسحبها، فيختفي الضباب كأنه لم يكن. هذه المرة تكلمت وطلبت من زوجها:

- عليك أن تقوم بردم هذا المستنقع، لم أعد أحتمل ذلك.

هو: سنردمه معا.

كان الوقت ليلا والهدوء يخيم على المكان، وجد نفسه واقفا أمام نبات القصب الذي كأنه جدار خلف الشجرة، ويحجب رؤية ما ورائه، واقفا ومشدودا لضوء أزرق خفيف يشتد وهجه ويخفت، ينبعث من خلف نبات القصب.

تقدم باتجاه نبات القصب الكثيف، أزاح أعواد القصب بيديه فاتحا لنفسه ممرا ليمر ويرى مصدر الضوء المتوهج. تجاوز نبات القصب بمشقة.

ليست كبيرة. لم يسر بضع خطوات حتى توقف في مكانه من هول المفاجأة. مستنقعات على امتداد البصر، مختلفة الأحجام، بعضها يجلس بداخله شخص، وبعضها اثنان، بعضها يمتلئ بالمئات، وبعضها بالآلاف، وليس مبالغة أن بعضها تغص بالملايين من البشر.

كان المشهد غريبا، ومحيرا، حتى لأكبر العقول. في بعض المستنقعات، أناس لهم ألسنة طويلة تتجاوز المتر، بعضهم يمسك بواسطتها الذباب، والبعض

الآخر الحيوانات النافقة، والأعضاء البشرية المتناثرة، التي قتل أصحابها وقطعوا إلى أجزاء.. وفي مستنقعات أخرى تحدث مطاردات دامية بين الموجودين بداخلها، تصل معظم الأحيان إلى عمليات قتل، وفي مستنقعات أخرى أناس تحادث نفسها وتهذي بكلام غير مفهوم، ومستنقعات ينتحر من هم موجودون بداخلها بطرق مختلفة.. مستنقعات يمارس المتكئون في وسطها الجنس، وبطرق مختلفة، وفي مستنقعات أخرى، أناس تمارس الاستمناء دونما توقف.

صراخ هنا وهناك، بكاء، وتأوهات وضحكات متعة. صراخ لا يتوقف، وكلها تردد نفس الكلمة " أنقذوني.. أنقذني".

وبينما هو يشاهد المشهد، تحركت الأرض تحت قدميه، وخرج ماء منها، غمره حتى ذقنه. ماء لزج وكثيف جدا، منعه من الحركة. وخرجت أطياف من أماكن مختلفة، بعضها لأناس يعرفهم، وبعضها لأناس لم يلتقيهم من قبل. تجمعت الأطياف حوله، وبدأت الدخول داخل جسده.

دب الرعب في قلبه، وبدأ بالصراخ، أنقذيني. أغمض عينيه وزادت حدة صراخه: أنقذيني.

فتح عينيه، وجد نفسه على سريره، وزوجته بجانبه، والعرق يتصبب منه. مسحت العرق عن جبينه وكامل وجهه، وحول عنقه، ومن ثم حضنته.

منطاد

يمكن تقسيم حياتي إلى ثلاث مراحل. المرحلة الأولى، منذ الميلاد وحتى سن السابعة عشر، وهي المرحلة التي قضيتها بكاملها في ليبيا. المرحلة الثانية من سن السابعة عشر وحتى الخامسة والعشرين، والثالثة منذ الخامسة والعشرين حتى الآن.

المرحلة الأولى كانت جميلة جدا، هذا ما أشعر به كلما تذكرت تلك الأيام. كل شيء كان مختلفا عما عليه الآن، كانت معظم العائلات متشابهة في المستوى المعيشي، وفي نمط الحياة. كانت البساطة هي السمة الأساسية. هل الناس كانت أكثر بساطة وعفوية، أم أن الظروف التي كانت متاحة في ذلك الوقت هي السبب. لا أعلم. ولا أريد الوقوف كثيرا في الأسباب، فهي ليست ذات فائدة. ما يهم أن الحياة والناس كانوا أبسط، وأكثر عفوية.

المرحلة الثانية، مرحلة الدراسة بالخارج، السفر والتنقل، جنسيات متعددة، ثقافات متعددة، تنسجم وتتفاعل في تناغم، ويتخلل هذا التفاعل صراع

حيوي. اليمين، اليسار، الوسط. متدينون، مؤمنون غير ملتزمون، تشيكيون، لا أدريون، وملحدون. كلاسيكيون، عدميون، وجوديون، عبثيون، وفوضويون. حوارات لا تنتهي، إلا لتبدأ من جديد. وأنا وسط هذا العالم، وهذه الفضاءات مشدوه.

هناك.. وسط هذه البيئة، ووسط هذا الخليط من الأجناس والثقافات والألوان، تعلمت هوايتي المفضلة، أو بمعنىً أدق، وجدت أجمل متعي على الإطلاق، ركوب المنطاد والطيران. لوحدك أو برفقة، لا يختلف الأمر كثيرا، تطير في هدوء، والنسيم يتخلل مسمات جلدك. ترى الصورة كاملة والألوان على حقيقتها. لست بعيدا عن الأرض، وتستطيع لمس السماء بيدك، في النقطة التي لو كان الأمر بيد أبينا آدم، لأختار أن يبقى هنالك إلى الأبد.

المرحلة الثالثة مرحلة العودة إلى الوطن.

عدت، وكان كل شيء مختلفا، العائلات مفككة بشكل غريب، الكل لا يتقبل الكل، المادية والأنانية، حب المظاهر والتكلف، هي السمات الطاغية على السلوك. صحيح بقي أولئك الرائعون كما هم، أصحاب الأرواح الخفيفة، من ابتساماتهم وضحكاتهم تنير الحياة الرتيبة، وهمساتهم وصراخهم وشكواهم تخبر دائما بأنه مازال وجود للخير والجمال هنا. ولكن مجموعات قليلة، ما

الذي يمكن أن تفعله أمام هذا الكم من البشاعة. أمام هؤلاء الآخرون، الذين هم الجحيم.

جلبت معي منطادي، وبدأت رحلة الحصول على الموافقة للطيران به، بعد أخذ ورد، مع الجهات الأمنية، وبعد أن اقتنعوا أنني لا أشكل خطرا على الأمن العام، أمن المواطن والنظام، وافقوا وهم يضحكون، بشرط أن أطير في الفضاءات المفتوحة، بعيدا عن بيوت الناس ومزارعها، حفاظا على خصوصية المواطنين، وبعيدا عن الجهات العامة والمنشآت. بعضهم نظر إلى بإعجاب وهمس لصاحبه، أنظر إلى الناس التي تفهم، اختار التحليق وركوب الريح، بعيدا عن الناس ونميمتهم وأحاديثهم المكررة. بعضهم طلب أن يذهب معي في رحلة يوما، وبعضهم ارتاب من هذا الذي يغلب على طبعه نمط الأجانب الأوروبيين، ربما هو عميل، يجب أن نبقيه تحت أعيننا دائما.

أول مرة أطير هنا في وطني، كانت تضاهي سحر المرة الأولى التي طرت فيها. لا أخفي عليكم، لم أنجح كثيرا في التأقلم مع الناس، لذلك كان الطيران متعة لا توصف. استمرت الأيام وأنا أقضيها بين البحر والمقاهي، والطيران بالمنطاد كلما كان الجو جيدا.

أنعم الله عليَ برفقة رائعة، أناسٌ أصحاب أرواح خفيفة وفكر مستنير، والذين لولاهم وبدونهم، لجننت من الواقع اليومي وتَغَوُّلِ الناس بعد الثورة.

هالني عدد الذين قابلتهم يريدون العيش في بلد آخر وواقع آخر، من كل أولئك، شخص واحد تتردد كلماته دائما في ذاكرتي. يجب أن تشكر الله كل يوم لأنه أعطاك الفرصة لتعيش أياما سعيدة، أن تعيش وسط أناس يتمتعون بالإنسانية والنضوج، لا يفرقون بين الألوان والأجناس، يحبون بحرية، ويُعَبِّرون بحرية، ويتعاملون بحسن نية. حاولت أن أشرح له أن معظم كلامه صحيح، ولكن هنالك بعض العيوب كذلك في الناس هناك، ولكنه لم يعطني فرصة لأتكلم، أخبرني بما صعقني - تصور، أخي متزوج ويعيش في الطابق الثاني فوقنا، وحتى الآن، لا أعرف شكل زوجته، كلما نزلت لبيتنا، تأتي وهي ترتدي السواد، وجهها مغطى وحتى يديها. أخ تقضي عمرا أنت وهو في غرفة واحدة، ويوم يتزوج يفرض على زوجته ألا يرى أخوه وجهها، وألا تحادثه. بربك، أي أخوة هذه، وأية حياة.

بعد قيام الثورة، أو الانتفاضة، أو النكسة. كلها أسماء تطلق على ما جرى في عام 2011، وكلها أوصاف تصح. زادت الفجوة بيني وبين الناس ونمط الحياة.

حَدَثت الكثير من الأشياء التي تحدث في مثل هذه الظروف، قتل، تهجير، خطف، سرقة، تعذيب، ابتزاز، تدمير ممنهج لكل شيء. عمت الكآبة والموت على المكان، ولم يعد وجود للكرامة الإنسانية. ووسط هذا الكم من اللامنطق والعبث، حُرمت من أهم وسائل مقاومتي لهذا الجنون المطبق، الطيران بالمنطاد.

لا يمر يوم لا يطلق فيه الرصاص، بمختلف أنواعه وأحجامه، بعضه في أجساد الآخرين، وبعضه الآخر في الهواء. مما يجعل الطيران فكرة مجنونة، ومخاطرة تؤدي إلى الموت، لا يُعلم متى ينطلق رصاص من مكان ما ويصيب المنطاد. وأصحاب الأرواح الخفيفة، طغت الكآبة على أرواحهم، عَلِقُوا في زاوية بين الحياة والموت.. أن تجد جثة، أو مجموعة من الجثث، مرمية على جنبات إحدى الطرق، أو بجانب أماكن تجميع القمامة، أصبح أمرا مكررا، كثر فقدوا عقولهم، ولم يستطيعوا احتمال كل ذلك.

فكرتُ في السفر إلى الخارج مرات عدة، ولكنني استحيت، فالوطن مكان نعيش فيه في السراء والضراء، على الرغم من أنني شجعت الكثيرين على الخروج. فمن لا طاقة له على الاحتمال، ليس مجبرا على تحمل عبث الآخرين الذي ينتهي. قاومت كثيرا، ولكن الفترة الأخيرة كانت الأشد وطأة وسوداوية. ذاك اليوم، كنت جالسا أنا وجاري أمام بيته والكهرباء مقطوعة، لم يعد لنا من أحاديث إلا عن الموت اليومي، والفساد الذي لم يُبقي على شيء. اشتكى جاري من الانقطاع الطويل للكهرباء، وأنَّ أمه التي تعاني من ضغط الدم العالي، لا تستطيع احتمال حرارة الجو العالية، مما يجعلها تعاني الصداع المستمر، وبأنه لا يمتلك ثمن مولد كهربائي، لكي يوفر لها التكييف، والإنارة إلى أطفاله:

- ومن أين لي توفير ذلك أمام هذه الأسعار، مرتبي لا أحصل عليه كله، وهذه الأسعار تحتاج ضعف مرتبي، لم أعد أعرف ماذا أفعل، كرهت الحياة. وأخذ يبكي.

لم أستطع النوم ليلتها، دموع أرباب الأسر حارة، وتقتل. اليوم التالي، ذهبت إلى ضواحي المدينة، حيث المساحات الخالية متوفرة، ملئت المنطاد بالهواء وطرت. لخمس سنوات، لم أُحَلِّق خوفا من العواقب، ولكن السخط الذي ملئني كان أكبر من الخوف. تمنيت ألا أهبط أبدا، وأن تأخذني الرياح إلى مكان آخر.

دب الهلع في قلبي، أصوات رصاص تُسمع، ولا يُعرف مصدرها ولا اتجاهها، بعد دقائق، بدأ المنطاد في فقد الهواء، أصيب وتمزق، ولأنني كنت على ارتفاع عال، والمزق كبير، هويت باتجاه الأرض بسرعة، دون تمكني من التحكم بالهبوط. سقطت على الأرض بقوة، وهذا آخر شيء أتذكره.

صحوت وأنا في المشفى ممدد على سرير، مصاب بأربعة كسور في الساق واليد، ولا زلت حائرا بين البقاء هنا، أو السفر.

أنقياء

في غرفة الجلوس، يقلب صفحات الجريدة على مهل، يبحث عن مقال يفتتح به قراءته للجريدة. مرت زوجته من أمامه، وجلست على الأرض تطوي ملابس قديمة لم تعد تصلح للارتداء. بعد أن أكملت طيها وضعتها في كيس، وأخرجت الكيس للخارج ووضعته بجانب سلة القمامة.

في الصباح خرج الزوجان للذهاب للعمل. لاحظت اختفاء كيس الملابس، بينما القمامة مازالت في مكانها، مخاطبة زوجها قالت:

- أنظر لقد اختفى كيس الملابس بينما القمامة لازالت في مكانها، يبدو أن أحدهم أخذه. مسكين.. كل الملابس التي بداخله لم تعد جيدة أو تصلح للارتداء.

لم يتكلم أو يرد بأي كلمة، ولا هي أضافت أي شيء. ظلا صامتين حتى وصلا إلى ناصية الشارع، حيث يأخذ كل منهما طريقا مختلفة للذهاب إلى عمله، ودعا بعضهما ومضى كل منهما في طريقه.

في المساء كعادته جالس على الأريكة وبجانبه فنجان القهوة، ويستمع للموسيقى. جاءت زوجته وهي تحمل كومة ملابس، جلست على الأرض تطويها. بادرت بالكلام:

- لقد أخذتُ بعضا من ملابسك وملابسي لأضعها في كيس، ربما يأتي نفس الشخص ليأخذها، تلك الملابس لا تصلح للارتداء، ولن تدوم لشهر أو شهرين آخرين، لن يستفيد منها، ولكن هذه جيدة، إن أخذها سيستفيد منها.

ابتسم لها وقام من مكانه واتجه إلى غرفته. عاد وفي يده بعض المال، ناوله لزوجته:

- ضعيه داخل الملابس. وانحنى ليقبلها، وعاد ليجلس على الأريكة.

وضعت الكيس بالخارج وهي تبتهل أن يمر نفس الشخص ويأخذه.

في صباح اليوم التالي، وقبل أن تعد طعام الفطور أطلت برأسها من النافذة لترى هل مازال الكيس في مكانه أم لا. لم تجد الكيس، ابتهلت مجددا أن يكون نفس الشخص هو الذي أخذه.

في اليوم الذي تلي ذلك، طُرق باب منزل الزوجين، فتح الزوج الباب فوجد أمامه شخصا يرتدي معطفا قديما، خمن أنه معطفه، بل وصل حد اليقين أنه معطفه. حياه الرجل:

- السلام عليكم.

- وعليكم السلام ورحمة الله.

صمت الرجل للحظات، يفكر كيف سيقول ما جاء ليقوله. صحيح أنه رتب في ذهنه ما سيقول منذ الليلة الماضية، ولكن يظل للحياء تأثيره على البعض في مثل هذه المواقف. ولكن صمته لم يدم طويلا وأردف يتحدث:

- أنا الشخص الذي أخذ كيس الملابس التي لم تعودوا بحاجة إليها.

هز الزوج رأسه وهو يشعر ببعض الاضطراب والحياء، أراد أن يقول شيئا ولكن عقله لم يسعفه، لم يبقى على هذه الحالة إلا لحظات. فقد عاد الرجل الذي أخذ الكيس للحديث:

- بالأمس عندما أَخَذت زوجتي تقلب ما في الكيس وجدت هذا المال.

وأخرج من جيبه المال.

- لقد تناقشنا أنا وزوجتي ونعتقد أنكم قد نسيتموه بالملابس قبل رميها، وقد جئت أعيده لك.

لم يتكلم أو يرد الزوج بأي كلمة، ألتفت ليناديي زوجته لتنظر لما يحدث، ولكنه قبل أن يناديها وجدها قد وصلت إليه، وهي تمد يدها لتصافح الرجل، وتكبح دمعة هو فقط يدرك أنها تكاد تسقط من عينيها.

رحيل ساخط على الحياة

الساخط هو أنا، وهذه حكايتي.

يتوقف عن الركض ويلتفت إليها خلفه:

- بسرعة.. أنت دائما بطيئة.

وقبل أن تجيبه، يكمل صعوده الدرج راكضا. تصعد خلفه لاهثة.. عندما وصلت إلى السطح، وجدته يرقص.. فاتحا ذراعيه ويدور حول نفسه في نشوة. التفت باتجاهها دونما أن يتوقف عن الرقص: هلَّا ترقصين معي.

ويتحرك باتجاهها، يمسكان بأيدي بعضهما، ويشرعان في الرقص.. لا موسيقى.. هو يدندن بصوته ويضحك.

- لما أنت حزين.

- أنا حر وخفيف.

- لا تأتي للسطح، إلا عندما تكون مختنقا، تبحث عن براح واسع وأفق ممتد.

- هذه المرة مختلفة، أنا حر، وخفيف.

أحست بشيء مختلف فيه. اعتراها بعض القلق، ولكنه رغم كل شيء كان فَرِحا وخفيفا.

- كم أكره سكون هذه المدينة وصمتها.. ليس فيها الشيء الكثير لِيُحَب.

أوقفه صوت أطفال يلعبون في الشارع. ظل تركيزه معهم للحظات.. ومن ثم عاد للحديث:

- هذه من الأشياء القليلة المعدودة، التي تجعلك تحبينها كمدينة وتحبين الحياة، هؤلاء الأطفال. ولكن لأكون منصفا.. فيها أجمل شيء في الكون.. أنتِ.. ويحضنها.

زاد قلقها، لطالما كان هشا ومرهفا. ولكن هشاشته في هذه اللحظة تبعث على القلق. سألته مجددا:

- هل هنالك شيء يزعجك؟

أجابها وهو مستمر يحضنها:

- لا. كل ما كان يزعجني غادر! عندما يحبك الله فإنه دائما يضع في دربك الرائعين من خلقه.. أدركت ذلك عندما وجدتكِ. يبتسم ويقبِّلها!

- أسماء.. هل أطلب منكِ طلبا؟

هزت برأسها، بمعنى ماذا تريد؟

- نسيت قنينة الماء في الأسفل، هلا تحضرينها.

نظرت إليه للحظات، ولكنها ذهبت لتحضرها. نزلت الدرج، نزلت طابقين.. ناداها هو من فوق:

- أسماء. تركت لك مع أمي شيئا، أريدك أن تأخذيه منها بعد أسبوع.

لم تفهم سبب ذلك، ولكنها أجابته على مضض:

- حسنا.

- عديني بذلك.

- أعدك.. سأذهب لأحضر الماء، اكتفيت من ترهاتك.

هو ضَحِك، وهي اكملت طريقها نزولا. التفت ناحية حافة السطح، وبدأ يركض باتجاه الحافة، وما إن وصلها، حتى قفز، وهو فاتح ذراعيه مبتسما.

هوى من سطح بنايتهم ذات الاثني عشر طابقا. اختار الجهة المعاكسة، لمكان لعب الأطفال.. لم يكن يريد أن يرعبهم.

علا الصراخ وتجمعت الناس!



مضت ثلاثة أشهر، ولم تفي أسماء بوعدها.. كانت مع أمه في المطبخ، تحضر الماء عندما سمعت الصخب تحت العمارة. لم تستطع أن تسامحه، لأنه فعل بنفسه وبها ذلك، ولا أن تعود مجددا لشقتهم منذ أن تم دفنه. ولكن تحت تأثير الوعد الذي وعدته له، وأنها أمنيته الأخيرة، قررت الذهاب لزيارة والدته، وأخذ ما تركه لها. لم تبقى طويلا في شقتهم مع أمه، فالبيوت عندما يغادر أحد أفرادها الحياة بصنع يده، تحتاج لفترة طويلة لتعود كما كانت.

في المساء فتحت الصندوق الذي تركه له، لم تكن لديها أي رغبة بذلك.. ولكن تحت تأثير الوعد الذي وعدته له، وأنها أمنيته الأخيرة، تقوم بذلك. وجدت في الصندوق الصغير الذي لا يتجاوز طوله وعرضه العشرين سنتمترا ظرفا يحتوي على مال، وورقتين مكتوبتان بخط اليد. تناولت الورقة وأخذت تقرأها:

حبيبتي أسماء..

لطالما كانت لدي تلك العقدة الدائمة. لم أستطع يوما التأقلم مع الحياة.. ولا مع فكرة ما بعد الحياة.

من الرائع وجود الجنة، لكي يحصل المحرمون على ما حرموا منه في هذه الحياة. تصوري.. ذات مرة أخبرني فقير، أنه كلما رأى شيئا يريده وليس معه ثمنه، يُلَوِّح له ويقول له نلتقي في الجنة، لدرجة أنَّ أحد أبناءه عندما يشتهي شيئا، يرد عليه أحد أخوته مباشرة يعوضنا الله

خيرا منه في الجنة. الجنة لمثل هؤلاء حق مستحق. يعوضهم الله بها عن حرمانهم.

ولكنني هش يا أسماء. لا أحتمل رؤية الفقراء والمعدمين. ولا الظلم والمظلومين.

ذات مرة وأنا أقرأ الجريدة، وجدت خبرا عن فتاة تعمل في مصنع، وُجِدَت مرمية على جانب الطريق.. مغتصبة وجسمها مليء بالجروح والكدمات. الفتاة هي من تعيل أسرتها.. كثيرة هي الحوادث مثل هذه.. أعلم.. ولكن ما هذه الحياة التي يعذب فيها الجيدون ويُظْلَمون. ظللت لأيام أسئل الله لماذا حدث ذلك لها، لماذا يا إلهي لم ترحمها وتمنع عنها ذلك.

بعد أيام أرسل الله لي الإجابة (خَلَقْتُ الحياة لتكون دار ابتلاء، لكل نصيبه من الامتحانات، صحيح أن بعض تلك الامتحانات قاسية جدا. ولكن على قدر القسوة يكون التعويض، ستدرك ما أقوله عندما ترى كيف سأعوض الأرواح المعذبة. وأما الفتاة فأنا معها، ورحمتي تأتي على أشكال مختلفة)

يبدو أن الجنة تستحق كل ذلك يا أسماء.. فليتقدس الله. هذه مشيئته، ولَن يظلم أحدا من خلقه. ولكن لا طاقة لي على الاحتمال.

لطالما أحببت فكرة العدم.. تخيلي معي يا أسماء.. لو أوجد الله العدم.. أن الإنسان بعد موته لا يعود له وجود، تنتشر ذراته في الهواء، ولا يبقى منه شيء، إلا الذكرى.

العدم كجزاء اختياري، يختاره كل من يريد إنهاء حياته طواعية.. لمن لا يطمع بحياة النعيم، ولم يفعل من الشرور ما يجعله يستحق دخول النار.. حينها سيرقص فرحا كل من يعاني في هذه الحياة، الفقراء والمُعْدَمون، من عانوا من ويلات الحروب، ومن مازالوا يعانون.. سيسكرون جميعهم حد الثمالة، ويُقَبِّلُون كل أحبابهم ويحضنوهم.. والمتزوجون سيقضون ليلتهم الأخيرة في ممارسة الحب غالبا، ومن ثم سيُقْبِلُون جميعهم بارتياح على العدم، والدفء يملئهم.

حينها ستختفي وصايا ما بعد الموت.. فما الحاجة لأن تكتب وصية لأناس، قد يختارون أيضا العدم بعد مفارقتك بساعات.. حتى الجنة والنار سيفقدان الزخم المحيط بهما، سيقل ذكرهما كثيرا، فلا أظن أن من وُلِدَ في قلب مجاعة والأوبئة تملأ جسده، سيهتم بنخل أو ثمر أو قصور.

لو وُجد العدم لكان يضاهي الموت قدسية بل يفوقه، ولكان سببا في فناء البشرية، فمعظم البشر يملئهم السخط على الحياة والبشر، ولولا الخوف من النار والعذاب لاختاروا جميعهم إنهاء حياتهم

طواعية.. لهذا أعلم أنه لا وجود للعدم. ولكن الله برحمته الواسعة ولطفه. بالتأكيد أوجد مكانا لنا.. للذين لا يحتملون الحياة.

الله الذي يحبني ذلك الحب الكبير، الذي جعله يضعك في دربي، لن يدخلني نارا.

أريدك أن تسامحيني..

المبلغ الموجود في الظرف هو خمسة آلاف. ليس معي أكثر منه، أريدك أن تزوري الأمكنة التي تحبينها، وأن تعيشي الحياة، ففيها كثير يستحق العيش لأجله.

حبيبتي أسماء سامحيني.. لقد اتصلت بك ذلك اليوم لأنك آخر وجه أردت رأيته

أحبك

فهرس القصص